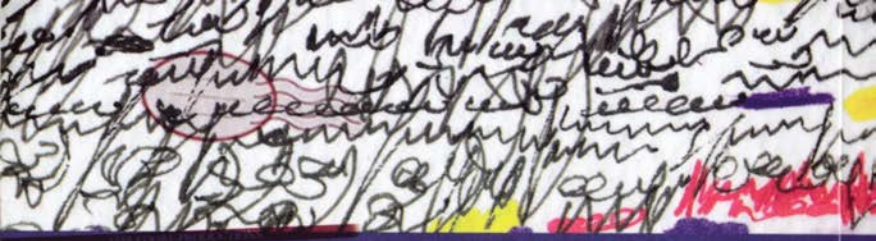

هُدَى بَرَكات

القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربية

٢٠١٩

رواية

مكتبة ٣٤٨

بَرِيدُ اللَّيل

دار الآداب

مكتبة | 348

بريد الليل

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

بريد الليل
هدى بركات / روائيَّة لبنانيَّة
الطبعة الأولى عام 2018
ISBN 978-9953-567-3

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

مكتبة ١٩ ٢٠١٩

/Dar.Al.Adaab

@DarAlAdab

daraladab.com

هدى بركات

بريد الليل

رواية

مكتبة 348

دار الآداب ـ بيروت

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

اللهم أنزل على قبرها الضياء والنور
والفسحة والسرور
اللهم اقبلها في عبادك الصالحين
واجعلها من ورثة جنة النعيم

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

«الليلة، ليلة البارحة كانت غريبة وصادمة
وأكثر غرابة هو تغيّرنا أنا وأنت
مرّةً أخرى، حبًّا بالحبّ القديم المحتضر،
خرجنا مرّة أخرى باتّجاه البحر...»

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ـ ١ ـ
خلف النَّافذة

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

عزيزتي،

بما أنَّه هكذا يجب أن تبدأ الرَّسائل، إذن «عزيزتي»...

في حياتي كلِّها لم أكتب رسالة واحدة. هناك رسالة وهميَّة بقيتُ أقلِّبها سنوات طويلة في رأسي ولم أكتبها. فأمِّي لا تُحسن القراءة، وقد تحملها إلى أحد المتعلِّمين في القرية ليقرأها لها. كارثة. ثمَّ علمتُ بأنَّ القرية بكاملها أصبحت تحت الماء حين انهار السدّ عليها. لا أعرف إلى أين انتقلوا، أو نقلوهم. السدّ الحديث التقنيّة بناه الرَّئيس لريّ الأراضي المتصحِّرة. ربَّما رويت لك قصَّةَ السدّ، لم أعد أذكر. ليس هذا هو الموضوع. الموضوع ـ تقريبًا ـ هو تلك الرِّسالةُ التي كانت تدور في رأسي. كنت أنوي أن أكتب إلى أمِّي عن تلك اللَّحظة التي وضعتني فيها في القطار، وحدي، وأنا في الثامنة أو التاسعة من عمري. أعطتني رغيفًا وبيضتين مسلوقتين. قالت إنَّ عمِّي ينتظرني في العاصمة، وإنَّ عليَّ أن أتعلَّم لأنِّي أذكى إخوتي، وقالت: لا تَخَفْ. لا تبكِ.

وأنا، ينبغي لي القول، خائفٌ، مرعوب، وحيد، مستوحش وعدائيّ مذ تحرَّك القطار. وعندي رغبة عميقة في إيذاء شخص لا أعرفه، حتَّى لا أجد له أعذارًا. شخص ليس لي أيُّ نوع من الصلات به، أطلق رغباتي من دون استعمال عقلي، إذ يبدو لي أحيانًا أنَّ عقلي هو عدوِّي الأوَّل.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

مذ تحرّك ذلك القطار، وهبطت عليَّ ظلمة تشبه مغيب الشتاءات، لم أَخَفْ ولم أبكِ، لكنّني غرقت في رائحة البَيض المسلوق النتنة. كنت أريد رمي الرغيف ولم أجرؤ. كنّا ما زلنا في الصباح الباكر، لأنّها أيقظتني بالقوّة. لكنَّ القطار بقي يسير في ذلك المغيب كأنّه نفق طويل، لا ينتهي.

وبقي ذلك المغيب في رأسي مهما تكن ساعات اليوم. هو نفسه المغيب الذي تختفي فيه الشمس عند الأفق، والذي يبكي فيه كلُّ الأطفال، ويحزن كلُّ الرومنطيقيّين الطيّبين، من إحسان عبد القدّوس إلى ريلكه. كآبةٌ تلفّ الكائنات اللّطيفة الجميلة، ولا تفسيرَ لها. وتكتب السيّدة المتخصّصة بعلم نفس الأطفال: لا تجزعي أيّتها الأم من «نوبات بكاء الساعة السادسة». إنّه اختبار. فالطفل يعرف غريزيًّا أنّه، وحيدًا ومتروكًا من أمّه، سيموت حتمًا. بكاؤه هو نداءٌ للتأكُّد من وجودها: أنّها هنا، وهو، إذن، لن يموت. وهي، أمّي، من لحظتها، لم تعد هناك.

ولأنّك رومنطيقيّة وتكتئبين ساعةَ المغيب، ولأنّك تحبّين الرّسائل المكتوبة على ورق، يحملها إلى العلبة الصغيرة ساعي البريد في جعبة جلديّة يعلّقها بكتفه، سأكتب إليك رسالة. ربّما تكون الرّسالةَ الوحيدة في حياتي كلّها، إرسالًا واستلامًا. ولأنَّ الثلج، من النوع اللّئيم الممزوج بالمطر، لم ينقطع منذ الفجر، فسأبقى في البيت. لن أخرج في هذا الطقس، وسأكتب إليك رسالة.

الآن، يجب أن أجد ما أعبّئ به السّطور والورق الأبيض. ماذا عساني أخبرك ولم يمضِ زمن طويل على لقائنا الأخير، أم تُراه مضى زمن طويل؟ ثمَّ أنا لا أملك موهبة رواية الأخبار. فأنا لا أخبر أحدًا شيئًا

مفيدًا. والناس لا يدفعهم إلى سماع الآخرين إلَّا الحشريَّةُ. وأنا أتكلَّم كثيرًا، وأستمرّ في الكلام ما استمرَّت عينُ سامعي في البحث عن الخبر؛ ذلك المثير الذي يلتصق بحياتي أو بحياة أحد الأشخاص الذين نتَّفق على استغيابهم. نميمة، لكنَّنا نطلق عليها أسماء أخرى. وأنت صرت تعرفين، على الأرجح، أنّي لا أقول سوى ما يقفز إلى حلقي حين أفتح فمي. أرى أمامي في المقهى رجلًا جالسًا على كرسيّ خشبيّ فأسترسل في تاريخ صناعة الخشب، والفرقِ بين أنواع الأخشاب واستعمالاتها، وقد أستطرد إلى ما يصيب غابات كوكبنا من ضرر، وكيف يعرِّيها ويصحِّرها حبُّ الهامبرغر وطغيانُ رأس المال المتوحِّش والشركات العملاقة العابرة للحدود والدول... إلخ. وإن كان كرسيّ الرجل قبالتي بلاستيكيًّا، دخلتُ عالم البلاستيك، من تاريخ اختراعه كمُنْتَج نفطيّ إلى آخر استعمالاته في صالات الجراحة الأكثر حداثة والخاصَّة بعالم الطبّ الجزيئي... إلخ. لقد تعلَّمت كثيرًا منذ غابت المحطَّة ورائي. عبَّأت رأسي، الذي قالت أمّي إنَّه ذكيّ، بنهم كبير وباستمرار ومثابرة، حتَّى صار تجميع المعلومات عن أيِّ شيء، وفي كلِّ المجالات، حاجةً إلى ملء فراغات غامضة كالتي للبوليميا، أو كالإدمان، ناسيًا الدافعَ والأسباب والهدف. إذن، فلأنتفعْ من هذا الخزَّان، فلأُدهشْ سامعي وأُثْنِه عن الكلام؛ أو فلأدهشِ النساء، أدهشْك أنتِ، فلا أترك ذهنك حرًّا لحظةً واحدة خوفًا عليك من التفكُّر. فأنا لا أريد، ولا يهمُّني أن أعرف عنك أكثرَ ممَّا عرفت من الوهلة الأولى، في اللَّحظة الأولى التي رأيتك فيها. ولا أسكت لأنّي لا أريد أن أترك لك نافذةً مفتوحة على الحميميَّة. فالحميميَّة ورطة. والكلامُ بالصوت المنخفض بين رأسين متقاربين، من نوع الاعترافات لكسر العزلة وإبعاد الوحشة عن قلوب كائنات حسّاسة لا تحتمل الوحدة إلخ...، ورطةٌ

بالمعنى الأوَّليّ للكلمة، أي: الهوَّة الغامضة العميقة في الأرض، بحسب معجم المعاني. تصوَّري!

وأنا، صرتِ تعرفين أنَّ لا شيء يحدث لي أو معي من هذا النوع. إلَّا اللَّهمَّ، مثلًا، فصل غضبي من السَّمكريّ الذي أعطاني موعدًا فانتظرته يومًا كاملًا ولم يأتِ. في الواقع لستُ مسلّيًا ولن أسلّيَك. وسأجد أنّي أعيد عليك تلك الأخبارَ التافهة التي ضجرتِ من تكرارها، وبقيت تدارين الإفصاح عن ضجرك من تكرارها، وبقيت أداري معرفتي بضجرك من تكرارها. لأنّي، بعودتي إلى إضجارك عن عمد، أُفهمك أنَّك لن تجدي بضاعة أخرى عندي. فلماذا تبقين معي؟ ما الذي تجدينه فيَّ؟ عندي؟

أعرف أنّي رجل متوسّط الجمال، أو حتَّى أقلُّ بقليل. ويحدث أيضًا أن أكون قليلَ التهذيب، أو لنقلْ ناقصَ اللَّباقة، كمثل ما أفعل حين أتَّصل بك في اللَّحظة الأخيرة لأعتذر عن موعدنا، قائلًا إنّي نعسانُ ولا رغبة لي في الخروج، من دون أن أدعوك إلى المجيء إليَّ، وأنتِ ـ في حساباتي الدقيقة للوقت ـ قد لبستِ وتهيَّأت. أعتذر وأنا أتثاءب بثقل، أُنهي المكالمة من دون أن نحدِّد موعدًا آخر. فلماذا لا تتركينني؟

تجيئين إلى الموعد التالي، بلا قصاص أو عتب. بقلب كبير، تقرّبين رأسك من رأسي بعد القبلتين الخفيفتين، وتنظرين إلى عينَيّ مباشرة، وترمشين بتركيز واهتمام لتقولي: كيف حالك؟ إن كان بابًا تفتحينه للغواية، فسأجيب فورًا بأنّي لا أنام مؤخَّرًا جيِّدًا؛ من أجل أن نسترسل في الكلام ساعةً لطيفة، نتبادل فيها أطراف الحديث عن النوم والأَرَق، وأسرار الأحلام وخيالات اليقظة... لكن سرعان ما أراك تبدئين بالدوران بإلحاح

ولجاجة في أوكسيد الكربون الخارج من فمي. تريدين شيئًا آخر؛ تريدين أن أشكو إليك ما يؤرّقني. فالأرق شقّ سهل قد يحمّلني نفاذُك منه على البوح. لماذا أنت في حاجة إلى كلّ هذا اللّعب؟ في حين ترين غرامي بك بلا مجهود منك بالمرّة. كيف أتعرّق لاهثًا حين تقتربين وأشتمّ رقبتك كصغار الحيوان، لأنّك مشرقة وجميلة حدّ إحراقي. لا تحتاجين إليّ كي تعرفي كم أنّك شهيّة، إذ يكفيك أن تري ذلك في عيون الرجال. طبعًا تعرفين، ولثقتك الكبيرة بمعرفتك تلك تسامحينني دائمًا. مَن كان مثلَك لا يقلق، ولا يشكّ، ولا يغار. لذا أبتعد عنك فورًا حالما تبدين في شبق عنجهيّتك العالية. آخذ كتابًا ونحن في السرير، أو أذكّرك بامرأة جميلة كنّا التقيناها معًا لأغمزك بعيني كأنّك صاحبي، لأتمرجل معك حول قدرتي على الغواية والإيقاع بالجميلات. تضحكين معي عابثةً، بلا غضب أو حتّى زعل خفيف، ثمّ تخرجين.

مكتبة أحمد

لا ينفع الندم. ساعديني. يجب أن تتواضعي قليلًا، ليس حدّ التذلُّل؛ فقط ما يلمّح إلى التعلُّق قليلًا بي. لا حاجة إلى أن أذكّرك بأنّي نشأتُ بلا أهل. ضاع أبي منّي، سقط كأنْ سهوًا. كأنّ تلك المرأة رمته من نافذة القطار حين رمتني داخله. لا أعرف كيف يحبّ الرجالُ النساء. في قريتي التي محاها انهيار السدّ، لم يكن هناك نساء تُحِبّ أو تُحَبّ. كان هناك كائنات بلا جنس، أو أنّي في عمري ذاك كنت فيما قبل الجنس. كنت في الخجل من جوعي الدائم، منشغلًا بمواراته، أنساه في انصرافي إلى الدرس. والأولاد، في البيت أو في الشارع، بالعشرات دومًا حولي، كأسراب الذباب، وأحيانًا كأسراب الدبابير المؤذية، وفي أحسن حال كالصراصير الطيّارة. لا مكان للهرب، ولا مكان لصناعة أدوات الذكورة أو الأنوثة، أو كماليّات من هذا النوع.

قليلٌ ما أذكره عن ذلك المكان وسكّانه، وهو مثير للتقزُّز. حتّى حين يأتي في المنامات يكون كالكوابيس. هذه أمكنة يأكلها الجَرَب، بل البَرَصُ، فتتفتّت وتقع من الذاكرة كأصابع المجذومين، قاحلةً ومريضة بفقرها، وقد فات وقت العلاج. كلّما قرأتُ عن سعادة استرجاع الطفولة، عن براءتها وما تترك في النّفس من عذوبة وحنين، ذُهلتُ، وملأتْ خياشيمي رائحةُ الروث الموحل، وغشت عينيّ أغبرةٌ ممزوجة بالعمش اللّاصق الدائم، والذي يلزمه ماء كثير لا نملكه لفتح الجفنين برهة، ساعة أو اثنتين، يعود بعدهما الذباب أسرابًا تنقضّ كأنْ بمخالبَ، وتعوّدتْ حتّى على الصفعات. هل هذا ما تريدين معرفته؟ طفولتي؟ السنوات التي علّموك أنّها أساس شخصيّة البالغ؟ سنوات البدايات السّعيدة بالضرورة؟

تعودين إلى أَرَقي كي تستنفدي الفرصة التي كانت متاحة. هل هذا كلّ ما سأنال: هل ما زلتَ لا تنام جيّدًا؟ هل عملتَ بنصيحتي وشربت نقوع الأعشاب الذي وصفتُه لك؟ لماذا لا تلمّحين إلى أرق العشّاق، مثلًا، أليس هذا هو المقصود؟ حسنًا. ما أرّقني البارحة لم يعد يؤرّقني اليوم:

إمّا أنّي أكذب لأتملّص من اعتراف بأمر حميم، وتزدادين إلحاحًا،

وإمّا أنّي أتراجع عن كذب لأنّي شخص قَلِق ومتقلّب، وحينها ستهبّين لنجدتي،

وإمّا أنّي غيّرت رأيي أو نيّتي شدَّ اهتمامك بي كرجل أَرِقٍ... إلخ.

لماذا لا تكونين أنتِ سببَ ذلك الأرق؟ لماذا لا تحاولين استردادي من انشغالي بامرأة أخرى تطيّر النوم من عينَيّ، مثلًا؟

صراحة، أصبح لا يطاق بحثُك عن المعاني. صرتِ تشبهين حكايات الكتب التي تقرئينها: بداية، متن، نهاية. ثلاثيَّة المنطق الحديديَّة. صرتِ مرعبة في شطارتك، في محاولاتك سحبَ بواطني، بلذَّة الصيَّاد حين يُقْدم على شقّ أحشاء الطريدة، منتصرًا، رافعًا سلاحَه، بادئًا بالسكّين من أسفل البطن، قبل أن يتوقَّف القلب تمامًا، بينما البخار الخفيف ما زال ينفث من الشدق المفتوح.

طبعًا أبالغ، لأنَّك تبالغين في أخذ الكلام على محمل الجدّ، على مثل ما تؤخذ المستندات العينية في المحاكم. بسبب أنّي قلت لك يومًا إنَّك فريدة عندي، مع أنَّ أيَّ امرأة أقلَّ ذكاء ستضع كلامي في خانة الغواية الذكوريَّة في أُولى درجاتها وأتفهها. صحيح أنّي قلتُ أيضًا مرَّة إنّي مُغرَم بك. حسنًا، كأنَّه لم يُغرَم بك رجل من قبل! كأنّي الرجل الوحيد على هذه الأرض! أسبلتِ جفنيك وتبسَّمت بدلال وبارتباك. لم تقولي أنا أيضًا مُغرَمة بك، ثمَّ... ثمَّ رحتِ تنتظرين أن تبدأ الحكاية؛ حكاية ما. أيُّ حكاية يا بنتي؟ ألم يكن ذلك «الاعتراف» كافيًا؟ حتَّى الشاطر حسن شرحوا له ما هو مطلوب للفوز بالأميرة ستّ الحسن. بعد ذلك قفزت السمكة التي تحوي الجوهرة إلى حرجه. هل أذهب إلى صيد السمك؟!

هل أغنّي لفريد الأطرش؟

إنَّه سوء فهم فظيع. و...

انتظري.

هناك رجل لا يكفّ عن النَّظر في اتّجاهي. يخرج إلى الشرفة وعينه عليّ. ومن وراء زجاجها يبقى وقتًا طويلًا مستديرًا بالكامل نحوي. منذ مدَّة بدأتُ أتضايق منه، وقد أشرت إليه، بظاهر يدي، بأن يكفّ وأن ينصرف

عنّي. أفهمته أنّي لست زبونًا للواطيّين. وهو، بلا شكّ، من مراقبته الدائمة، أو شبه الدائمة، قد رآك عندي، ورآنا نسحب السّتارة في وجهه. هذا غير معقول. السّتارة تمنع عنّي مصدر الضوء الوحيد، لا أريد أن أُغلقها دائمًا لأتخلّص منه. كأنّه إقرار بالخوف؛ كأنّي أخاف منه وأتوارى... حتّى حين أُطفئ النور وأتلصّص عليه أجده ما زال هناك ينظر ناحيتي، وابتسامة لئيمة ترفع شاربيه الكثّين. كأنّه يراني في مخبئي.

كيف تفسّرين ذلك؟ هل ستقولين إنّها هذياناتي، وإنّها البارانويا التي تصيب متعاطي الكوكايين؟ هل تعتقدين فعلًا أنّي مدمن؟ لأنّي أنصاع لطلبك بالتوقّف عن تدمير صحّتي؟ يعجبني، يا لعبتي، أن تكوني على هذه المسافة من الحياة الحقيقيّة. لا، ليس الكوكايين الحياةَ «الحقيقيّة»، بل ما تسوقين من أفكار جاهزة لا تعرفين عنها إلّا ما تجمّعين من هنا وهناك. عمّا يجب وعمّا لا يجب... كان ذلك ليلائمني لولا أنّك تماديتِ. أتراجع فتتقدّمين لاحتلال المساحة... حتّى هذه الغرفة المفروشة صرتُ، مثلَك، أسمّيها بيتًا. غرفة بائسة في بناية من شقق يستأجرها القوّادون للعاهرات اللّواتي يتمشّين تحتُ في الشارع. بسيطة، نسمّيها بيتًا. فنيّاتُك برفعي من منزلة الفقير، حتّى «نسيانُك» بعضَ المال على الطاولة، نيّاتٌ طيّبة، طبعًا. إلّا أنّي لست فقيرًا، بل معدَمٌ، لكنّ ذكائي ـ كما تقولين ـ هو ثروة! طيّب. لكن أن تحملي المنظّفات والمطهّرات، والخِرَق على أنواعها، وأيضًا صناديق الكرتون وأكياس النايلون، وكزوبعة الدعاية في التلفزيون تروحين في الكنس والمسح والتلميع والفرز لجعل هذا الجُحر بيتًا؟! وإذ تكونين في سعادة لا توصف، كيف يمكنني أن أعترض. لا قانون يقول إنّ المرأة المتحرّرة تحبّ الوسخ أو الفوضى. صحيح. لكنّك لاحظتِ أنّ الشراشف النّظيفة

وروائح الديتول والمطهّرات قد خفّفت كثيرًا سرعة انتصابي وقوّتَه. لذا، اعتذرتِ عن هذا الاقتحام للمساحة الصّغيرة التي انسحبتُ إليها من هذا العالم، ووعدتِ بترك الأمور تعود إلى حالها، كما كانت قبل الزوبعة، لكنّك لم تفعلي. صرتُ، من نفسي، أستبدل الشراشف وأُفرغ المجلى وأمسح الغبار قبل وصولك خوفًا منك! كأنّه لم يتبقّ سوى أن أفرد زاوية لطفل حبّنا، وأن أبدأ بتركيب السّرير الخشبيّ الصّغير الذي نكون اخترناه معًا من كاتالوغ إيكيا...

أنت خارج الحياة تمامًا. قلتِ مرّة شبهَ ممازحة إن عادتك الشهريّة قد تأخّرت. ماذا تريدين؟ أن تصبحي أمًّا؟ أن تصبحي أمّي؟ ما تُراه يغريك بأداء هذا الدور؟ هورموناتك التي تصعد إلى رأسك وتُغشي بصرك؟ ألستِ كائنًا متحضّرًا يسيطر على غرائزه؟ أين خطبتك العصماء عن الأنوثة المنتهَكة؟ هل كان هذا فخًّا، لطمأنتي؟ خذي قرارًا وأعطيني فرصة أن أشرح لك، ربّما بقليل من التفاصيل، إلى أين ذهب بي قطار الريف ذاك. أعني كيف، وبأيّ سرعة نسيت المرأة التي وضعتني فيه. وإلّا فكيف كنتُ لأبقى في تلك المقطورة التي تبتعد بي لا أعرف إلى أين. نسيتها فورًا. وهي أيضًا نستني. لم تأتِ يومًا لرؤيتي، ربّما كي أنصرف تمامًا إلى التعلّم. لم يترك جهلُها وتخلُّفُها سوى رائحة البيض المسلوق، وذلك النفق الأسود. لو وضعوها أمامي بين نساء أخريات لما استطعت التعرُّف إليها. تلك المرأة قصفت عمري وشرّدتني في بلاد اللّه؛ البلاد التي كلُّ سكّانها غرباء؛ غرباء ويتامى. لم يصلني أنّها بحثت عنّي يومًا. فقط حين ماتت وجد أحد إخوتي رقم هاتفي لا أدري كيف. قال أنا أخوك فلان، لم أعد أذكر أيّهم، ثمّ قال ماتت أمّك. أعتقد أنّي أجبته بـ «البقية في حياتكم»، أو بكلام مشابه. ثمّ أصابتني نوبة من الغضب العارم. رحت

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

أتساءل لماذا اتَّصلوا بي؟ ما الهدف من إخباري، وهم لم يتَّصلوا مرَّة من قبل، للسؤال عنِّي مثلًا.

كانت تُعنى بالدجاجة المريضة، تحملها النهارَ بطوله كي تبعدها عن نقرات الديوك. تُطعمها الحَبّ بيدها، ولا تتركها إلَّا بعد أن تتعافى. تصلِّي للنَّعجة التي تتعسَّر ولادتُها، تبقى قربها تمسِّد على رقبتها، تغنِّي لها، ثمَّ تزغرد حين ترى الحمل يتحرَّك في مشيمتها. وكانت تبكي حزنًا لسماعها ثغاء الحملان المفطومة عن حليب أمّها... إلَّا أنا. أيَّامًا عديدة لم تكن تلتفت ناحيتي. كانت تدلق المياه الساخنة على رأسي وتصرخ فيَّ إن اشتكيت. أنا، لم يكن لي أيُّ فائدة؛ لا بيض ولا حليب ولا لحم. كنت مجرَّد بطن فاغرٍ فاه. ثمَّ أبعدتني إلى مكان هي لا تعرف عنه شيئًا...

ماتت إذن. لم يعد هناك مجالٌ للانتقام. لم يعد هناك مجال لكشف الحساب. لا داعي للعودة التي لم أفكِّر فيها إلَّا في هواجسي. في هواجسي، كنت سأجد طريقة مبسَّطة لأخبرها كيف انطفأتْ في رأسي كلُّ ذرَّات الأوسيتوسين. أشرح لها أنَّ الأطبَّاء هنا يسمُّون هذه المادة «جزيئَةَ التعلُّق»، بما أنَّها تقدِّر العلم، وأنَّ، في دماغي المميِّزِ عن أدمغة إخوتي، مناطقَ لو صوَّرناها لوجدناها مطفأة، لا تصل إليها الكهرباء. وهي بالضبط تلك المناطقُ التي تعالج الكآبة والخوف والعنف والتخلِّي...

كنتُ قرأتُ في أحد الكتب كيف تأكل الأمَّهات أبناءها الذكور من شدَّة التعلُّق. كيف تقوم إحداهنّ بإعادة ابتلاع ابنها إلى بطنها، إذ تعلم بأنَّه سيكون شقيًّا مع كلّ مَن عداها. تعيده إلى حيث السَّعادةُ القصوى، التي لا ولن تشبهها سعادة، وهي، التي لا ترتوي أحشاؤها إلَّا بذكورته، ستقيم قربانها على جثَّته الحبيبة. إنَّه هو نفسه، ذلك الحبُّ الذي يأكل حتَّى الجثثَ.

أنا قذفتني أمّي في قطار الأرياف ككيس القمامة. لذا، قبلتُ لعبتكِ في البداية. تكونين أمًّا صغيرة، في أوقات متقطّعة، أشتمُّ حليبك وأحاول أن أبقى ذَكَرًا. وعلى الرّغم من محاولاتي الدؤوبة، فإنَّ ذلك كان مستحيلًا. كمن يسير إلى الهوَّة وهو يراها بوضوح. صار الاقتراب من ثدييك يذكّر رأسًا بالحليب، فأخاف إن اعتصرتُهما من سيلان النقاط البِيض على يديّ، ومن زنخة السائل الأبيض.

لكن، حين شممتُ رائحة الثوم في الـ«بيت» قرّرتُ أنَّ تماديك أصبح في حاجة إلى وقفة؛ إلى جردة شاملة. أن تقلي بَيضًا، أو تفتحي علبة سردين، لا بأس. لكن الثوم؟ الثوم يعني طَبيخًا، استيطانًا صريحًا، لا شرعنة لأيّ مقاومة ضدَّه. إذ من يقاوم امرأة تقبّل فمًا يفحّ برائحة الثوم. ترضى بروائح الرّجل الكريهة، وتغسل ملابسه الداخليّة أو جواربه النتنة بسعادة. من يقاوم أمًّا يعرف تمامًا أنّها تريد أن تأكله؟

أعتقد... أعتقد أنَّه بات عليَّ أن أتكلّم مع هذا الرجل الذي لا يكفّ عن النّظر ناحيتي. ربَّما تفاهمنا. سأقول له إنّي بصراحة أحبّ النساء. أعني النساء فقط. وليس لديَّ أيُّ موقف سلبيّ من المثليّين، بل لي أصحاب عزيزون عليَّ من الـ... وإن وجدتُ أنَّ لديه أذنا صاغية فسأشرح له بهدوء كيف أنَّ مراقبته لي أمر مزعج؛ صار مزعجًا، وأنَّه لا لزوم لأن أذهب إلى الشرطة لأبلّغ عن...

لن أفعل. فقد قرأت في أحد الكتب أنَّ بين المثليّين مَن تتحوَّل رغباتُه المكبوتة إلى أفعال جرميَّة غاية في العنف، بسبب أنَّه لا يستطيع السيطرة عليها؛ لا حدّ لساديَّته، ولا حتَّى فعلُ القتل يشفي ميله المَرَضيّ. كثيرون من هؤلاء يتحوَّلون إلى سفَّاحين... صحيح أنّها كتب رخيصة من

النوع الذي يُباع بالوزن، لكن من يدري؟ من يدري؟ الحقيقة أنّي أخاف من ظلّي.

سأنتظر. ربّما يضجر، ويكفُّ من تلقاء نفسه.

كنت أريد أن أسألكِ كيف هان عليك كلُّ هذا الغرام؟ هذا الغرام النادر. وتلك الرغبة في أن أضاجعك عشرات المرّات، مئات المرّات، ألم تلمسيها؟ كيف ينفلق صدري ويجنّ نبضي حتّى أكاد أختنق؟ كيف كنت أنصاع لحركة جسدك كالخادم، أو كالعبد؟ كيف أقبّلك من أصابع قدميك حتّى أطراف خصلات شعرك؟ كيف أتأمّل كامل مساحة جلدك المضيء، حتّى حفظت مكانَ أصغر شامة ولونَها وأنا مغمض العينين؟ كيف اعتبرتِه ناقصًا، هذا الغرام؟ مأساة. هذه مأساة، إذ هذا كلّ ما عندي. رغبة خالصة، كاملة ناجزة ولا تنقص.

أنتِ من أَنقصها. بسؤالك المستمرّ عن «الضمانات»؛ عن خدمة ما بعد البيع. إلى متى سـ... امتحان مستمرّ وتريدين أن أسقط في الامتحان. إذ ذاك سأجيبك، مدفوعًا بإلحاحك، بما لا تريدين سماعه. وإذا حدث وأجبتك بما لا تريدين سماعه، لا تعترضين! سأقول إنّنا طبعًا، شيئًا فشيئًا وبفعل العادة، سنرى الضجر يتسلّل إلى لقاءاتنا؛ أعني تبدأ الأمور تأخذ مجراها الطبيعي. أعود إلى النَّظر طويلًا وصراحة إلى أفخاذ النساء، وإلى أثدائهنّ، ساهيًا عن حديثك الجميل، وعن ثدييك القريبين. وتصدّقين! تصدّقين بسرعة. لذا أدفع بك إلى زاوية القهر. أبالغ، لعلّل تعترضين، بقليل من الغضب، أو العتب... وسَيَلي ذلك كذبي المكشوفُ وتلفيقي السافر، كأن أعتذر عن رؤيتك أيّامًا أو أسابيع لأنّي... مشغول. بمَ؟ بمن؟ لن تسألي.

حين أراك بعد انقطاع، يُفاجئني كذبي إذ يصبح حقيقة. فعلًا، من الممكن العيشُ من دونك. أعني أنّها قوانين الطبيعة. لم آتِ شيئًا من عندي. حين أراك ورائي تسيرين في الشارع في الاتّجاه المعاكس عائدة إلى بيتك، أتنفّس الصُّعداء. لن تركبني امرأة ركبتُها. أرفع ياقة سترتي وأسير خفيفًا جَذِلًا: امرأة جميلة ولطيفة، وقد أمضينا أوقاتًا حلوة معًا...

أو أرفع ياقة سترتي، أحاول أن أتنفّس بعمق، لكنّ نوبات البكاء تغلبني. أُشرق بدموعي صارخًا بالعربيّة كي لا يفهمني أحد: كانت ستبدأ بالملل. كانت ستبدأ بالملل حتمًا، لأنّ لا شيء فيّ يسلّي النساء، ولأنّها دخلت وأدخلتني لعبة الطبيخ وتحويل الاستديو إلى بيت. هذا قانون الطبيعة، وكانت ستتركني. ولم أكن لأحتمل ذلك.

أنا حزين فعلًا، إذ أكتب إليك عن تردُّدي؛ عن رواحي ومجيئي بين راحة التخلُّص منك ومأساةِ خسارتك وفشلنا معًا.

لكن... لكن، كيف يقوى هذا الرجل على الوقوف في البرد هذا الوقتَ كلّه؟ أم أنّه يدخل ويغلق باب شرفته حين أتوارى عن نظره؟ كأنّه يظهر، بسحر ساحر، حين أُضيء النور أو أفتح السّتارة. إنّه يشبه قليلًا ذلك الرجلَ ثقيلِ الظلّ الذي التقيناه يومًا في سوبرماركت وسط البلد، وعلّقتِ آنذاك على بشاعة شاربيه الكثّين، وعلى نظراته الوقحة... على نحو اضطرّني إلى تقديمي إيّاكِ على أنّك «غنيمتي»، مُلكي، كما تُملي لغة التوستيسترون. هكذا يلعب جمالُك ضدّك أحيانًا؛ يثير فيّ غرائز التيوس، فأقدّم قرنَيّ، أدقّ أظلافي في الأرض وأنفخ في التراب. أن أغار عليك لا يعني أنّي مُغرَم بك. إنّها مسألة بين الذكور؛ تنافسٌ على حجم الخصيتين، بمعزل عن موقع الأنثى الواقفة في المساحة المشتركة لأيّ

من الذَّكَرين. هذه في جيناتي، ولا أريد، في معركتي مع العالم أجمع، أن أحارب جيناتي أيضًا... لماذا أنا في معركة مع العالم أجمع؟ لا أدري، اسألي العالم. ربَّما لإحساسي بأنّي في معركة ولا أملك أيّ سلاح. وكلَّما خرجتُ عدت مليئًا بالكدمات. لست مسالمًا، لكنّي لم أجد مصدرًا يسلّمني سلاحًا. والأدهى أنّي ضعيف البنية ولا أجرؤ على ضرب أحد. إذن، أنا ضعيف وجبان. ويرتدّ غضبي عليَّ مضاعَفًا.

تشتكين أحيانًا من عدائيَّتي التي لا تفهمين لها سببًا. تسألين عن أسباب غضبي، لا لتخفّفي منه حبًّا بي، إذ يكفي أن ننزلق معًا في السرير ليذهب عنّي، بل لأنَّك حشرية، وتناورين لغزو جديد.

تذكرين أوَّل مرَّة رأيتك فيها؟ قلتُ لك إنَّك تشبهين ممثلات الأربعينيَّات. كنت أقصد أنَّك جميلة، طبعًا. ولمّا لمْ تردّي ولا حتَّى بابتسامة، قلت في نفسي إنَّك كسبتِ الشوط الأوَّل، وستدفعين الثمن غاليًا. ومنذ وصولك إلى سريري، وكلَّما خرجتُ منك، تنفَّستُ عميقًا، وانحسرتُ بما يلزم من جهد إلى الدور الذي قرَّرتُه لنفسي. أمسِّد على شعرك، وأسألك إن كان ذلك ناجحًا، وإن كانت «الجولة» ممتعة وكما تشتهين، كالسمكريّ الذي أنهى مهمَّته ويسأل المَدام إن كان الشغل على ذوقها. أردّك إلى الكَثرة المُهينة. أريد أن أُبعدك عنّي، أروي لك نِكاتًا كنت رويتها مرارًا؛ أو أقف خلف النافذة وأقول شيئًا عن الطقس في الخارج، كي أذكّرك بالخارج؛ بوجوب الخروج قبل أن تتأخَّري. ثمَّ ألبس كي أرافقك، ولو قليلًا، كجنتلمان. يجرحني في العمق أنَّك لا تعترضين على أسلوبي المشين، لا تغضبين ولا تشتمينني. وترجعين إليَّ كأنَّ شيئًا لم يكن. تبًّا. كيف تقبلين؟ لماذا لا تحبّينني؟ تبًّا لك!

حين ضربتك أوّلَ مرّة، وأسرعتِ إلى احتضاني، عرفت أنّ خلاصيَ منك سيكون أصعب ممّا توقّعت. قلت لك في اليوم التالي، معتذرًا، إنّي لا أعرف ماذا تريدين منّي، فأجبتِ دامعة بأنّك لا تريدين شيئًا البتّة. البتّة؟ وَلَوْ؟! لا شيء البتّة؟ لماذا تبدين، إذن، كمن يحمل وعاءً فارغًا يدور به من حولي وأنا أجهل ما عساي أملأه به. هل تعتقدين أنّي أخبّئ عنك حكايات، وأسرارًا أضنّ بها. إن كان الأمر كذلك فلماذا تعودين؟ ألا ترين أنّي لا أجهد في إخفاء علاقاتي بنساء أخريات؟ أتحسبين أنّي أميّزك لأنّي أخبرك عنهنّ؟ أصطفيك؟ أضعك في حميميّتي أنت من دون الأخريات؟ أم أنّها أفكارك الحضاريّة الرافضةُ ملكيّةَ جسد الآخر؟ يعني أنّه لا يهمُّك أن يكون جسدي لك؟ حسنًا. فليكن. أنت لن تقرعي بابي، إذن، ولن تستمرّي في القرع حتّى أفتح. لن تطردي المرأة التي قد تجدينها في سريري، وتكسبيني بعرق جبينك. لن تأخذي رأسي إلى قلبك وتربّتي عليه. لماذا أنت قاسية إلى هذا الحدّ؟ وكيف تصدّقين ندمي ودموعي بعد أن أضربك؟

تبدين قادمة من عصور بائدة على الرّغم من كلّ ادّعاءاتك؛ قادمةً من المنطقة الفارغة، من الجانب التافه، من الشُّرُفات التي حنّطت شحوب نساء مسلولات، موقوفات في نيون قمر مجلّد كالسمك المجلّد، في حين كانت النساء الأخريات يمتصصن دمَ الفارس المنتظر ليعدّلنَ في تركيبته، وليَضْخُخْنَ ماء النار في جمجمته، وكي يصبغنَ فرسه الأبيض بالكحل والمساحيق الثقيلة الملوّنة، ويفرقعنَ بالضحك.

أنت في الحقيقة لا تشعرين بي، إلّا عندما أكون أمامك، ووحدي. لا تعرفين، مثلًا، أنّي، عندما تضحكين عاليًا لرجل آخر، يعنّ لي أن أصفعك. أقول سأفعل لاحقًا، حين نكون وحدنا، وسأشرح لها أنّي أغار

لأنّي أحتقر المحيطين بها، لا لأنّي أخشاهم. تساهلُك مع هؤلاء البشر فيه غباءٌ أكيد. هل أنت في حاجة إلى التسلية؟ ألأنّي مُضجر ومُملّ؟ ألا ترين، بعينيك الجميلتين، كيف أقبّل فرجك بنَهَم وحرقة؟ هذا أقلُّه مسلٌّ. لا؟ أنت لا تتفهّمين هذا الغرام. وأنا، كلّما ضاجعتك، ندمت. أقول ما لي ولهذه المرأة. إنّ رغبتي تعطيها قوّة لا أستطيع احتمالها. فحين أحلم بك ليلًا أستيقظ مذعورًا كأنّه كابوس. وفورًا، أشكّ في مقدرتي الجنسيّة. فورًا أعتقد أنّي فقدتها نهائيًا. أفتّش عنك كالمحموم، وحين ألقاك أستميت لردّ التهمة عنّي، وللإيحاء بتفاهة الذي بيننا. في المقهى أسكت وأتثاءب، وأكرّر الأسف من سوء الظروف التي لا تسمح بأن نلتقي أكثر. وطبعًا، سوف تنظرين إلى ساعتك تاركةً إيّاي أتخبّط في وُحول قوّتي. أُغريك إذ ذاك بالمكوث قليلًا بعدُ، فتعتقدين أنّي ربّما سأُسرّ إليك بأمر مهمّ. هكذا، حتّى أنظر أنا إلى ساعتي. أتركك في المقهى مستعجلًا الخروجَ ومعتذرًا لسهوي عن الوقت. أسير في الهواء المنعش. أشتري خبزًا وفاكهة. أتخيّلك عائدة إلى بيتك، حانقةً، متسائلة عمّا دفعني إلى هذا الإلحاح لرؤيتك؟! ثمّ أتخيّل خروجك لرؤية أصدقائك فأرمي بالخبز والفاكهة في أقرب صندوق قمامة، وأصعد درجات السلّم فارغًا وبردانَ. وقد أعرّج على إحدى صديقاتي النساء أو أحملها معي، وأرتجل لها عشاءً طيّبًا، والكثيرَ من المزاح...

بما أنّي لا أليق بك، وبما أنّي ضدّ اللّباقة، ولم أتعلّمها من أحد...

يعذّبني أحيانًا، حين أكون وحدي في اللّيل، ويركبني شيطانُ وجهك، أن أتصوّره حزينًا عليّ ومستوحشًا من دوني. يعذّبني ألّا يكون لك مكانٌ عندي وأن تقبلي ببقائك خارجًا...

... معك حقّ. إلى أيّ حياة قد أدعوك؟ فأنا مفلس حتّى المهانة. وأبدو للناس كأنّي أعارض أقداري، إذ مَن يكون في مثل حالي لا يرفض عملًا بأيّ أجر كان. أيُّ أجر في وضعي هو أجرٌ محترم، هذا صحيح، لكن العمل... عملت. عملتُ عند ذلك العسكريّ الانقلابيّ الذي فتح جريدة ليعلّم الخليقة أصول الديمقراطيّة، وكان في كلّ مداهمة لمفتّشي وزارة التشغيل يفرّغ المكاتب من الموظّفين. نكرّ على أدراج القصر الفخم كالنعاج إلى الشارع، وننتظر في المقاهي أن يأتي إلينا الحارس، القبضايُ الموكل بالأمن، ليصفّر لنا بأن عودوا؛ ذلك بأنّنا كنّا نشتغل من دون أوراق. بالأَسْود. كان عاشقُ الديمقراطيّة الذي هرب من بلده، أو تواطأ مع زعيمها «التاريخيّ» للابتعاد قليلًا، لعلّ الناس تنسى مجازره، كان يحاضر فينا، بعد جمعنا بالقوّة في القصر الذي اشتراه وحوّله إلى مقرّ، يهنّئنا على إقامتنا بالمنفى ـ مثله ـ لأنّنا طلّاب حرّيّة، ولا نحتمل القمع والتخلّف في بلداننا العربيّة.

ولأنّنا طلّاب حرّيّة وديمقراطيّة، وغرباء، فمن يسأل منّا عن أوراق بداعي الحاجة إلى مستند إقامة، كان القبضاي يرافقه إلى الطابق الأرضيّ حيث مكتبُ التحقيق شبه السرّيّ. مكتب تحقيق بكلّ معنى الكلمة، وله حقّ طرد الناس، بمجرّد الإشارة إلى القبضاي بأن يرافق الكاتب إلى لملمة أغراضه بصمت والخروج من البوّابة الحديديّة المقفلة باستمرار... كنّا نتساءل كيف يفسّر المفتّشون خلوّ كلّ هذه المكاتب، وفناجين القهوة ما زالت ساخنة فوقها؟ ثمّ نخلص إلى أنّ المال يُقفل الأفواه ويمدّد المهل، بل يركب القوانين. ونروح نردّد، بمرارة، عزاءَ واحدنا للآخر بأنّها شروط العيش في المهجر... وبأنّنا يتامى بلداننا، وأهلنا فقراء. ثمّ نتواعد على اللّقاء، والبحث معًا عن عمل.

غريب أنّي لم أزعل يومًا من رجل الأمن القبضاي. كنت، بشكل ما، أستظرفه. كنّا نضحك كثيرًا معًا، وخصوصًا من الفارق بين جسمه القويّ الكبير وجسمي. تعجبه لعبة قوّته على الرجال الذين يكتبون، ولا بدّ من أنّه كان يتساءل ماذا تنفعنا الكتابة أمام قوّة القلب والعضل. كان يشبه الطفل العملاق، وله رقبة ثخينة تحت وجه لعبة، وكثيرًا ما كان يذكّرنا بأقرباء لنا في قرانا، يتباهون برفع الأثقال وإركاع الثيران، وحتّى جرّ الشاحنات... كنت أتسلّى معه ونتحدّث، لكنّي لم أفاتحه يومًا في خصوص مهمّاته في الجريدة. ولحسن الحظ، لم يرافقني إلى البوّابة...

أنا، المفلس حتّى المهانة، هل اعترضتُ؟ هل تركتُ الشغل؟ كنت أمشي كحمار يشدّ رسنه بنفسه، إلى أن وصلنا ذات صباح، ورحنا ننتظر، كعمّال التراحيل، ونضغط على الزرّ مرّات ناظرين إلى الكاميرا فوقه، وآملين ألّا يُحسَم التأخير من الأجر. بقيت البوابة مقفلة ولم يردّ علينا أحد. انتظرنا طويلًا، ولمّا بات الشارع الهادئ مزدحمًا بنا، جاءنا صوت بالميكروفون يقول: عودوا إلى بيوتكم. لا عمل اليوم... ثمّ تكرّر الأمر بضعة أيّام حتّى يئسنا. لم يشعر أحد منّا بالغضب، أو بدافع الانتقام من الزعيم العسكريّ، سارقِ ثروات بلده، مهرّب المخدّرات، العاشق للديمقراطيّة، والذي كان يحاضر فينا بلذّة عارمة، ثمّ يوزّع علينا الحلوى. انشغلنا بالبحث عن عمل آخر، يشبه بالطبع ذلك الذي طُردنا منه، يسندنا ولو لبضعة أشهر، لذا كان علينا، من أجل ذلك، أن نصمت تمامًا، وأن نبدو مطيعين قنوعين. فمن دون عقد عمل، لا سبيل إلى الشكوى...

نشفت السوق من العملات، بعد مغامرات من هذا النوع، أو لنقل إنّ العملة انتقلت إلى أسواق أخرى. وصار الخِيار، شيئًا فشيئًا، بين الكوكايين والإسلاميّين. ولأنّي جبان، بل غاية في الجبن، وجدت

نفسي أكثرَ ميلًا إلى الأوّل. ذهبت إلى المقهى «الوطنيّ» مرّاتٍ عديدةً، وعرضت خدماتي في ما يخصّ حمل الشنط. لم يشغّلني أحد. عدت أدراجي من المقاهي، ولم أذهب إلى الإسلاميّين الذين كان مستحيلًا أن أسلك معهم أو بينهم. إن كنت فشلت مع المهرّبين، فكيف سـ...

ثمّ فوجئت، حين خطر لي تجديدُ جواز سفري، بأنّي غير مرغوب فيّ. احتفظوا بالجواز. قلت خذوه لا بأس، لكنّي لم أكن أريده للعودة، بل لتجديد إقامتي هنا، أو ربّما الانتقال إلى مدينة عربيّة أخرى، إلى بيروت مثلًا، أو عمّان... ثمّ بدأت أفكّر كيف سأعيش هنا من دون إقامة. مهاجر غير شرعي لن يحصّل عملًا، مستحيل...

هكذا وجدت نفسي «معارضًا». جاء تصنيفي معارضًا بعد أن نشرت صحيفة فرنسيّة مقالًا كنت ترجمته من العربيّة. ترجمته ولم أكتبه، في مقابل مبلغ زهيد فعلًا. قلت إن كان الأمر كذلك فلأذهبْ إلى المعارضين، فقد أجد بينهم مَن هم في حالتي، وقد يساعدونني بشكل من الأشكال، إذ لهم مسالكُهم ومعارفهم وطرائقهم.

لم يطقني أحد منهم. وعلى الرّغم من خلافاتهم فإنّهم اتّفقوا، فيما بينهم، على أنّي «مشبوه» ومنتفع، وتجب مراقبتي حتّى يثبت منّي ما سوف يتّفقون على اعتباره جدارةً ومؤهّلات...

ماذا أيضًا؟

عدا ذلك، أنا متخلّف، عدائيٌّ وعنيف، وفوق ذلك مدمن. وأجمل خيالاتي الجنسيّة تبدأ بأن أضعك بين ذراعَيْ رجل آخر. تكونين عارية تمامًا، تحته أو فوقه، ربّما لأعالج غيرتي. يعجبني أن أراك تشبهين النساء، ولك جسمٌ معافًى ينضح رغبة، متنقّلًا بين أيدٍ كثيرة وأفواهٍ تجعل لحمك

يضيء ويتفتّح. أن تكوني كجارتي زوجةِ الخبّاز تضحك وتتلوّى حين أوْلمها وأضربها، وتهرع إلى الأكل مباشرة بعد صراخ اللّذّة. ليس أجمل وأجدى من الأمكنة العموميّة، حيث يتشارك البشر فيما هم متّفقون عليه منذ عصور، بلا فرادة أو ...

عدا ذلك، أنا مشتاق إليك.

ها أنا أهذي مجدّدًا. كلّ الكوكايين في السوق مضروب. عدا الغالي الثمن، كلّه مغشوش بالباراسيتامول. بدلًا من أن تنفشَني الجرعةُ كالديك، فهي تسحب ما تبقّى من أوكسجين في رأسي..

لماذا أخبرك بكلّ هذا؟!

آه، لأقول لك كيف أنّي صرت مفلسًا مُعْدَمًا وبلا أوراق. هذا لا يغيّر شيئًا في علاقتي بك. لا أكتب إليك الآن كي أستردّك، بل لعلّها، أي هذه الرّسالة، كلامي الأخيرُ. ليس عندي أوهام. عليّ أن أجد امرأة متقدّمة قليلًا في العمر، أرملة أو ما شابه، ترضى بي زوجًا فأحصل في البدء على أوراق إقامة، ثمّ ربّما على أوراق تجنيس.

واللّه عبث. أكثر أيّامي تنقضي عبثًا في عبث.

انسَيْ ما كتبته في هذه الرّسالة. أردت فقط أن أكلّمك وأطيل انشغالي بك لأنّي مشتاق إليك. تختلط أموري عليّ حتّى إنّي أشكّ في أنّي، في بعض ما كتبت، قصدت امرأة أخرى غيرك، أو ربّما رجلًا آخر تخيّلته توأمًا لي، أو شيئًا من هذا القبيل. انسَيْ ما كتبت لأنّي أنا نفسي نسيته... هو الكوكايين.

لو تأتين الآن.

لو تأتين الآن لنَسينا كلّ شيء معًا. سأقول لك: قفي قربي وراء النافذة، ولننظرْ معًا عبر الزجاج إلى هذا اللّيل الجميل؛ إلى المدينة تتمطّى تحت أضوائها وتتمدّد في النعاس. اقتربي منّي ودعي كتفك تلامس كتفي، كأختين صغيرتين تتفرّجان، سرًّا عن أهلهما، على اللّيل. وقولي لي ماذا ترين؟ لا تدعي الوساوس تعذّبك، فأنت لن تَرَيْ سوى هذا اللّيل، لا شيء خلفه أو فوقه أو تحته. هذا كلّ ما في الأمر.

اخلعي حذاءك لترتاح قدماك الجميلتان. لا عليك من الوقت. خذي وقتك كاملًا وأنا سأبقى واقفًا. لن أتعب، ولن أقوم بحركة قد توقظك لو ملتِ عليّ وغفوت قليلًا. سأبقى واقفًا حتّى أتحلّل في مكاني وتتفكّك عظامي...

تمهّلي قليلًا. سأعود إليك.

هذا الرجل قبالة نافذتي يراقبني. منذ مدّة يراقبني.

هو ليس شبيهًا بصاحب الشاربين الكثّين. إنّه هو نفسه! إنّه أحد رجال المخابرات. ولا علاقة له بتعاطي الكوكايين أو تجارته. لست تاجرًا ولا مستهلكًا بالحجم الذي يستدعي مراقبتي من غرفة فندق مستأجَرة منذ أيّام، وربّما أسابيع. هو رجل مخابرات أرسله من رفض تجديد جواز سفري في القنصليّة. هذا مضحك؛ مضحكٌ ومخيفٌ في الوقت نفسه. ربّما هي مناسبة لأشرح له الوضع ونتفاهم وجهًا لوجه...

سأعود إليك.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

... ذلك بسبب سطوة النعاس،

أو قل سلطان النوم . فأنا التي لا تُحسن الانتظار أبدًا، لم أجد نفسي هنا مضطرّة إلى مقاومته. لم ينزل عليّ ذلك النعاسُ الذي كنت لا أقدر على رفعه من رأسي وأعضائي، مع أنّي في هذه الغرفة لا أجد ما أتسلّى به. إلّا أنّي أعاين وأتابع الأغراض كأنّ لها أهمّيّة ومعانيَ كبيرة. مَن يقعد في الفراغ يبحث لاإراديًّا عن صلة له بالمعنى الذي للأغراض. كأنّي أسترجع ذاكرتها، أعرفها، أو أنّ لها عندي مكانًا أو حكاية. أقول، مثلًا، إنّ مسكة باب الخزانة تشبه ما كنت رأيته عند عمّتي، في شقّتها القديمة التي تركَتْها أيّام الحرب.

أحدّق في درفة الخزانة وأتابع تعرُّقات الخشب حتّى تدمع عيناي. ثمّ أنتقل إلى درج الطاولة الصّغيرة إلى جانب السرير، وأروح أتردّد في فتحه. أعرف أنّ في داخله إنجيلًا رقيق الورق، كما في جميع فنادق أوروبا، ودليلًا قديمًا للهاتف لم يعد يستعمله أحد، من زمان، وربّما نسيه عمّال التنظيف.

كم نزيلًا صرف مثلي كلّ هذا الوقت يفكّر في أغراض الغرفة، عدا ذلك الذي ترك رسالته في دليل الفندق؟ هذا الدّليل أيضًا لا يفتحه

النزلاء. لا حاجة إلى الدليل في فندق صغير كهذا. لا حاجة إليه أصلًا مع الهواتف الذكيّة. إنّه نوع من ادّعاء التَّرَف والعراقة من قبل مالكيه، وهو يبدو قديمًا من اهتراء أطرافه، ومنسيًّا هنا أيضًا كالإنجيل.

الرّسالة التي وجدتها في دليل الفندق حيَّرتني كثيرًا. إنّها تتحدَّث عن شاب كان كتبها في غرفة مفروشة رخيصة الإيجار في شارع شعبيّ قريب، فكيف وصلت إلى هنا؟ ثمَّ هي رسالة ناقصة، بلا خاتمة، وتدعو إلى القلق على كاتبها... أتصوَّر أنّه في السجن مثلًا، بعد أن توهَّم أنَّ مخابرات بلده الأصليّ تراقبه، فذهب إلى رَجلها وانتهى الأمر بكارثة، لذا لم يُنهِ الرجل رسالته. والرّسالة موجَّهة إلى المرأة التي يحبّ ولا... أعتقد أنَّ تلك المرأة أخفت الرّسالة حتّى، مثلًا، لا يعثرَ عليها المحقّقون... إذ فيما ضمَّنها كاتبها من اعترافات بأنَّ إقامته غير شرعيّة، أو بتعاطيه المخدّرات، ما يورّطه في مسائلَ غير قانونيّة... وقد تكون تلك المرأة وراء وصول الرّسالة إلى غرفة الفندق هذه، لا أدري كيف، وهي ربَّما نسيتها أو أخفتها وتاهت عنها... في أيّ حال، لم يعد الرجل إلى استكمال ما كتبه، وقد يعني هذا أنَّ اللّقاء برجل المخابرات ـ أو من توهَّم أنّه كذلك ـ انتهى بكارثة، أو بمأساة...

ويُحتمل أيضًا أن يكون رجل المخابرات قد استأجر هذه الغرفة ليراقب الشاب صاحب الرّسالة، ووجدها، هذا في حال ذهب إلى بيته يبحث عن مستندات أو أوراق، ثمَّ نسي الرّسالة هنا لأنّها لا تهمُّه.

إنّه الفراغ، سيّدُ الخيال والمعاني.

لكنّي كنت، وأنا أقرأ الرّسالة، أكاد أسمع صوته؛ أكاد أرى ذلك الرجل المستوحش واقفًا وراء زجاج نافذته، ينظر إلى فراغ اللّيل وحيدًا

من دونها؛ أعني تلك المرأة التي يحب، أو هو لا... تلك الرّسالة بدت كأنّها رسالة وداع، ولا أدري إن كان يريد فعلًا أن يرسلها، لأنّه لم يُنهِ كتابتها.

إلّا أنّي أكثر ميلًا إلى الاعتقاد أنّ رجل المخابرات هو من وضع يده على الرّسالة، وخبّأها هنا، ثمّ تاه عنها. أعني هنا في غرفة الفندق هذه التي تُطلّ بالفعل على حيّ ذي سمعة سيّئة، فيه بنايات متهالكة ومليئة بالشقق المفروشة...

لماذا أخبرك بهذا كلّه؟ كي أتسلّى قليلًا وأنا أنتظر، ولأنّ وحشة ذلك الرجل، كاتبِ الرّسالة، تشبه وحشتي كثيرًا... ولو أن حكايته لا تشبه حياتي في شيء. لكنّي أحسست بشكواه كأنّي صديقة قديمة، أو كأنّي أنا نفسي المرأة التي يتكلّم إليها، ربّما بسبب ما تمنّيتُ قوله له، ورغبتي في أخذه بين ذراعَيّ. كم هذا غريب. لأنّي لم أحبّها أبدًا، تلك المرأةَ، ولو التقيتها يومًا، وهذا مضحك طبعًا، فسأعاتبها بقسوة. حتّى إنّ خيالي يذهب بي إلى اتّهامها بسرقة الرسالة وبتخبئتها هنا، بعيدًا عمّن قد يفتّش بيتها، في حال أنّها هي من قتل كاتبها ـ لا رجل المخابرات ـ أو زوجها... الذي، بعد أن اكتشف العلاقة بينهما، أرسل قاتلًا مأجورًا، اعتقد القتيل أنّه رجل مخابرات من بلده.

صحيح، أنا دائمًا هكذا، أتأرجح بسهولة بين خيالي الخصب، أعني أوهامي، والواقع. أخلط كثيرًا بين ما هو وهمٌ وما هو حقيقة، لكنّ ذلك لا يُقلقني. إنّه في الحقيقة يسلّيني كثيرًا. كأن أرى في نومي حلمًا وأستغرق في تفاصيله طوال النهار التالي، وربّما أكثر. وقد يعود إليّ في المنام صديقٌ مات منذ مدّة، ويؤنسني وجوده معي لأيّام، من دون أن أخلط بين حياته وموته، أيْ من دون أن أنسى أنّه مات. يؤنسني وجوده على الرّغم

من معرفتي أنَّه لا يترافق مع الحزن أو مشاعر الحداد.. كأنَّه يأتي لزيارتي لأنَّه اشتاق إليَّ، أو أنا اشتقت إليه، يأتي متخلِّصًا من عذاباتي الماضية. تلك التي كانت تصوِّر لي المراحلَ المتعاقبة لتحلُّلِ جسده في القبر، من انتفاخ وبيوض ديدان وأشياء كهذه.

لكنْ، ما الذي يذهب بي إلى كتابة كهذه، قد تخيفك منِّي أو تجعلك تعتقد أنِّي «مهزوزة» قليلًا. أعتقد أنَّ رسالة ذلك الرجل جرَّتني إلى هذه الحكايات الـ...

كنت أكتب إليك لأملأ انتظاري. فأنا لا أعرف كيف يتصرَّف الناس الذين ينتظرون.

كنت سأقول لك كيف أنِّي لا أنتظر، أعني حتَّى عند طبيب الأسنان. أعني أنِّي، وأنا أنتظر أنام. أغفو فعلًا. لم أكن هكذا من قبل، كنت نافدة الصبر وأتوتَّر حين يتأخَّر مَن واعدني، وأروح أرصف في رأسي كلماتِ العتب أو الغضب. صرت منذ مدَّة أنسى من أنتظر، ولماذا أنتظر من أنتظر، ثمَّ تثقل جفوني. وإن كنت في مقهًى، مثلًا، أُغرق رأسي بين كتفيَّ وأنزل، أغوص في الكرسيّ، وأضع حقيبتي على بطني كمن يتلحَّف بغطاء، وأنام. ليس نومًا كذلك اللَّيليّ العميق، بل غفوًا إلى الداخل حيث يختفي النهار الخارجيّ تمامًا. أو كحال السُّكْر الشديد... سأرغي بالكلام لأسلِّيك، وأيضًا لأنَّك ستسألني إن كنتُ ضجرتُ وأنا أنتظرك، مرتبكًا ومعتذرًا عن التأخير بسبب العواصف الثلجيَّة. إذ ما الذي ستجده من كلام حين تدخل الغرفة وتنظر إليَّ، ثمَّ تراني، هكذا وحدي: كبيرةً في السنّ ومختلفة. أعني بعد كلّ هذه السنين. وأنا كنت سأبحث كيف أُطلق كلامي، ومن أين.

مَنْ ينتظرْ يعرفْ شيئًا ولو يسيرًا عن الشخص، أو الشيء، الذي ينتظره. يفكّر فيه فيتسلّى قليلًا. لا لأنّي لا أعرف شيئًا عنك بالمرّة، بل إنّ ما أعرفه قليل جدًّا، وعتيقٌ، وغير مستقرّ في ذهني. ثمّ، حين أستحضرك، أضيع بين ذكرياتي واختراعاتي. أتوتّر قليلًا ولا أتسلّى. قد تجد ذلك غريبًا، لكنّي، صراحة، لم أعد أتسلّى إلّا حين أكون وحدي. حتّى حين أخرج من بيتي أنتقي موسيقى أحبّها لأبقى قليلًا في البيت وحدي. ولأنّي حين أعود سأسمع الموسيقى وأنا ما زلت في الخارج، وأنا أدير المفتاح في قفل الباب، وأقول في نفسي إنّها هي نفسها الموسيقى، موسيقاي، وإنّ أحدًا لم يدخل في غيابي ويحرّك الهواء. وإنّي، إذن، كنت وحدي في الداخل ولم أضجر. شيئًا فشيئًا، ويومًا بعد يوم، صارت الوحدة بذخًا كاملًا؛ مُلكًا عظيمًا. الوحدة في هواء لا يتنفّس فيه أحد سواي، حتّى إنّي صرت أتكهرب، كأنّ أفعًى قد لسعتني، أكاد أصرخ ألمًا وغضبًا إذا ما لمسني أو دقر بي أو بأغراضي أحد من دون قصد، في الشارع أو الباص أو المصعد. إذا تعثّر شخص وهو يقع، مثلًا، وتمسّك بذراعي. أعرف أنّه سلوك مجانين. أتنفّس عميقًا. أبتسم وأقبل الاعتذار برحابة صدر، بينما أحاول أن أُخفي تعرُّقي وتسارعَ نبضي، وربّما بسبب شحوبيَ أيضًا. لا بدّ من أنّ كثيرين غيري يعانون الاقتراب من أجساد الآخرين أو ملامستهم، لكنّهم، مثلي، يتصرّفون بكلّ تهذيب، ولا تَبين عليهم علائم الكراهية. كثيرون، مثلي، ينظرون في المطعم إلى آثار الأصابع على الصحون النّظيفة أو على الكؤوس، لا لأنّهم مولعون بالنّظافة، بل للتأكّد من خلوّ المائدة من آثار الناس...

على الرّغم من ذلك، فإنّ الرّسالة التي وجدتُها هنا، في دليل الفندق، لم تُشعرني بأنّ أحدًا غيري موجودٌ في الغرفة، أو أنّه كان فيها.

غرف الفنادق مسكونة باستمرار، بكلّ الذين عبروا فيها. يدخلها النزيل الجديد بوَجَل، كأنّه سيجد حتمًا آثار من كان هنا قبله. لكنّي وجدتها فارغة. كأنّ الرجل الذي ترك الرّسالة هنا شخصٌ أليف وأعرفه، لمجرّد أنْ لمست ورقها. ومع أنّ لغتها الأجنبيّة معقّدة، وبعضَ كلماتها بالكاد فهمتها، فاضطررت إلى قراءة الرّسالة مرّات عديدة، إضافة إلى خطّه الرّديء الذي جعل بعض الأحرف تلتفّ على نفسها كحشرات ميّتة.

لكنْ، لماذا أعود إلى تلك الرّسالة؟!

أردت ربّما أن أخبرك هذا لأنّي رحت أتحرّك في الغرفة كما كان يفعل في غرفته، بيته. فأذهب إلى النافذة كأنّنا نذهب إليها معًا. وأرفع الستارة لنتفرّج على المطر. حتّى إنّي كدت أكلّمه بالصوت المسموع قبل أن أعي أنّه لم يعد ينقصني سوى أن أكلّم الأشباح! ربّما قصدتُ إطلاق صوتي للكفّ عن سماع صوت المطر. المطر المستمرّ بغزارة منذ خروجي من المطار. ملأتْ رأسي دوشةُ هذا المطر، وهو لا بدّ من أنّه قد أذاب الثلج الكثيف قبل وصولي إلى هذه المدينة، أو ربّما لم تثلج الدنيا بالمرّة هنا، وأنّي استبدلت هذا المكان بكندا حيث العواصفُ الثلجيّة؛ أو أنّي اخترعت الثلج وأنا في طريقي من المطار لأقول إنّك لن تأتي من كندا، حيث العواصفُ الثلجيّة ستعيق حركة الطيران.

هكذا أصبحتُ. وكما قلت لك، أفرح حين تختلط الأمور في رأسي؛ أو، صراحة، حين أخلطها أنا في رأسي. إذ في خلطي الأمورَ أعطيتك موعدًا في فندق صغير هنا، وفي الوقت نفسه أردّد أنّك مستحيل أن تأتي، مع أنّي هنا أنتظر. وأعتقد أنّ لذلك علاقةً بالعمر الذي وصلتُ إليه الآن، إذ أمضيتُ زمنًا طويلًا من حياتي وأنا أشدّ الأشياء في اتّجاه

المنطق المعمول به، قبل أن أتعب تعبًا شديدًا وأُقلع عن الشدّ في اتّجاه منطق الآخرين. منذ انقطع طمثي، أو على الأرجح بعد موت أبي، فوجئت بانفتاح كوّة في جدار روحي؛ كوّة يأتي منها البرد الصقيع، وهي في الوقت نفسه انعتاق من الجدران الصمّاء التي لم أفهم مَن أقامها، ولا متى أقيمت. اكتشفتها كأنْ فجأة. بدأت أرى تسرّب العالم إليَّ، وكدت أغرق.

كان أبي درعي، يحمي أعضائي ممّا يتهدّدها، وخوذةً سحريّة لرأسي تُبعد عني الأفكار السّوداء القاتلة. لكنّي بذلك، وبسبب حبّي له، كنت مكبّلة. كنت مستسلمة لغرقي إلى الأعماق السحيقة، لكنْ مع درع فولاذيّة، وداخل بدلة غطس بثقل الرصاص. أغرق، لكنّي محميّة. لكنّي أغرق، في أعماقٍ كبئر بلا قاعٍ ولا شيء يُميتني، أو يخلّصني.

بعد موت أبي، صرت حرّة في كراهيّتي؛ في أحقادي على مَن أحببت وهو لا يستأهل حبّي. كأنّي خرجت من ماضٍ كنت أنزلق فيه على سكّة السلامة، وفي مقطورة الطّيبة بلا إرادة منّي أو رغبة. فقط، كي يستمرّ في حبّي مَن لم أعد أحبُّهم، أضعتُ نصف عمري... والآن، أريد أن أمحوَهم من أيّامي.

ربّما هكذا، قرأت تلك الرّسالة. هذه رغبة في الذهاب ناحية منطق رجل لا أعرفه، إلى مكان آخر، مختلف؛ منطق أنانيّ، منعتق وحرّ وفالت، لا يطلب موافقة الآخرين؛ موافقة الأخلاقيّين أو الجماعات المتكاتفة حول المبادئ والقوانين والأصول. هكذا، هو من يُقيم لنفسه مراجعة بأسه وضعفه، نجاحه وفشله. وبشكل من الأشكال، يصبح الضعف مصدر قوّة عظيمًا. تصوّر امرأة ممتهَنة يوميًّا، منتهَكة يوميًّا، مفرّغة من روحها يوميًّا، كتلك التي أردَتْ زوجَها ببندقيّته بعد زواج دام عقودًا. قالت في المحكمة إنّها غير نادمة، وإنّها

مستعدّة لقتله من جديد من دون أدنى شكّ، وإنّها منذ تلك اللّحظة تسلّلت إلى قلبها قوّةٌ رفعتها عن الأرض الحضيض لبقيّة سنوات عمرها القليلة. هل تسمّي ذلك انتقامًا؛ غدرًا؟ أم استردادًا للحقّ الأوّلي في التنفُّس؟

ليس من الضروريّ أن يكون الإنسانُ الحرّ قويًّا، أو القويُّ حرًّا، كما في كتب التاريخ أو خرافات الأبطال، متماسكًا جَسورًا ومِقْدامًا، ومحمولًا على موجة من نور تقود الناس من حوله. جاري، الذي ألقى بنفسه من الطابق الخامس بعد مقتل ابنه ذبحًا أمام عينيه، ما الذي يَعنيه من كلّ ما ومَن كان حوله، أو من كلام الخوري وهو يؤنّبه في تابوته لأنّ يسوع لا يحبّ الانتحار. مع أنّه هو، بحسب الحكاية، قد انتحر. الكلّ يعرف كيف انتحر يسوع ما عدا الخوري. كان جاري رجلًا عجوزًا مريضًا وضعيف البنية والعقل أيضًا، لكنّه قرّر أن يكون حرًّا وهو يطير من الطابق الخامس... وأنا قد أخبرك، إن أتيت، كيف قرّرتُ أن أكون حرّة قبل أن أطير إلى هنا... سوف نرى.

أفكّر الآن في أنّي أطفأت هاتفي الخلويّ قبل خروجي من البيت. كان ينبغي لي أن أتركه شغّالًا حتّى إقلاع الطائرة. ربّما حاولتَ الاتّصال بي لتقول إنّك سوف تتأخّر كثيرًا، أو إنّك غيّرت رأيك ولن تأتي. هذا معقول، مع أنّك أنت من بحث عنّي، بل أَجهد نفسه في البحث، بحسب ما رويتَ لي. إذ، على الرّغم من أنّي كنت أقفلت حسابي على فيسبوك من زمان، وجدتني أنت على فيسبوك لا أدري عبر من؟ سوف أسألك عن ذلك، إن أتيت. في أيّ حال، يستطيع الإنسان أن يغيّر رأيه، طبعًا، لكن كيف أعرف أنا أنّك غيّرتَ رأيك؟ لم يبلّغني عامل الاستقبال عن أيّ اتّصال. هل قطعتِ العواصفُ الثلجيّة خطوطَ الاتّصال عندكم؟ ربّما. هذا يحدث دائمًا عندنا.

تذكَّرت، قبل منتصف اللَّيل بقليل، أنّي لم آكل شيئًا طوال اليوم. قبل أن أطلب أكلًا على الهاتف، قال عامل الاستقبال، قبل أن أكرّر السُّؤال، إن أحدًا لم يتّصل بي واعتذر. حسنًا. فتحتُ الباب وطلبت المصعد، أريد الخروج إلى أقرب حانة أو مطعم، لكنّي أحسست بتعب مفاجئ وأنا أتصوَّر نفسي راكضة تحت المطر بلا مظلّة. بتعب، وبنعاس هبط عليّ بما يشبه الشلل. دخلت في السرير الدافئ عارية، وثيابي قربي في حال دخلتَ وأنا نائمة. نمت بسرعة، لكنّي استفقت بعد أقلّ من ساعة مع آلام في ركبتَيّ وأسفلِ ظهري. لستُ بخير. أعتقد أنّي سأمرض، أو أنّي مريضة بالفعل. عليّ أن أعود إلى النوم بسرعة لأنَّ شكلي سيكون سيِّئًا إن...

فجرًا، كنت في أحسن حال. طلبت فطوري إلى الغرفة وأكلت كلّ ما كان على الصينيَّة الكبيرة. سحبت الستارة السميكة: ما زالت تمطر.

لا شيء أفعله على الرّغم من مزاجي الرائق.

لو كنتَ هنا لتفرَّجتَ معي على هذا العصفور الذي يتنطَّط تحتُ في الشارع الفارغ تحتَ المطر، كأنَّه لا يبتلّ به. عصفور صغير بلا سرب يقلِّده أو يتعاطى معه. عصفور وحيد رائق المزاج في مدينة كبيرة لا يرى منها شيئًا. ربَّما بسبب تقدُّمه في العمر لم يعد في حاجة إلى أحد، هو أيضًا، مع أنَّ العصفور لا يبدو لنا أبدًا كبيرًا في العمر، أو عجوزًا. العصفور هو دائمًا صغير ولا يهرم. غريب. لا أحد يعرف لماذا يستحيل أن نفكّر في أنَّ العصفور يهرم، ثمَّ يحمله العجز إلى الموت ميتةً طبيعيَّة ككلّ المخلوقات التي تنفد أعمارها. ربَّما لأنَّنا لم نَرَ في حياتنا عصفورًا هَرِمًا، أو يفعل ما نفعله علامةً على كِبَرِنا؛ حين نكفّ مثلًا عن محو الأسماء أو

العناوين وأرقام الهواتف على صفحات مفكّراتنا مع أنّها لأصحاب ماتوا. لن نمحوها لتوسيع المساحة البيضاء، إذ نترك الأسماء والعناوين الجديدة على قصاصات وأوراق صغيرة متفرّقة، لا ننقلها إلى المفكّرة ولا نخشى أن تضيع. أعني لا يهمّنا أن تضيع...

لأنّي مرّةً، وكنت أريد أن أشتري فِراشًا جديدًا قد يريحني من آلام الظهر المبرّحة، قلت للبائع الشديد الحماسة إنّي، فعلًا وصدقًا، لا أريد أن أدفع ثمن فراش يبقى، في كامل صفاته عالية النوعيّة، طوال سنوات الضمانة، ضمانة الجودة، بعد أن أموت. لا أريد أن أدفع ثمنًا مرتفعًا لما سيبقى بعد موتي، يبقى جديدًا وأنا ممدَّدة عليه ميتةً وجسمي كالخشبة، وهو، كما تقول، يستمرّ في الـ«تنفُّس» تحت جثتي. وإنّي أكره هذا الفراش ولن أشتريه قطعًا. وخرجت.

ذاك كأن يصلبك أحد الأشخاص على صليب وهو يُشيد لك بنوعيّة خشبه العالية، أو بجودة مساميره المضادّة للصدأ. هذا يحدث كثيرًا في حياتنا اليوميّة ولا ننتبه له، أو حتّى لو انتبهنا لا نعرف كيف نتصرّف. كأن يدمّر عاشق حبيبته تدميرًا منهجيًّا لأنّه يحبُّها كثيرًا. أنا، مثلًا، صار يؤذيني أن أسمع رجلًا يعدني بحبّه «إلى الأبد». يُشعرني بالذعر، إذ هو لا يترك لي مجالًا لأن أغيّر رأيي، لأن أتغيّر، كالحكم بالسجن المؤبّد. ماذا لو كففتُ أنا عن حبّه «إلى الأبد»؟ ما هو الثمن الذي سيترتّب على جودة المسامير، تلك التي سيصلبني بها غرامُه؟

كنّا سنضحك كثيرًا لو أنّي رويتُ لكَ حكاية الفراش، أو الصليب، ذلك لأنّك قد أصبحتَ في عمري أنت أيضًا، طبعًا، أو أنّك تكبرني بسنوات قليلة. وسنتذكّر بعد هذا الضحك، ربّما، كم أكلنا من كمّيّات

الأكيدنيا ونحن نمشي في الشوارع، ثمَّ استمررنا في أكل الأكيدنيا في السيَّارة التي حملتنا من ساحة البرج إلى الجبل، لم أعد أذكر أيّ جبل، كي تلتقي صديقًا لك. وحين وصلنا، رحت أنا أبحث عن تنكة زبالة أو برميل أُلقي فيه كيسَ النايلون المليءَ بفضلات الأكيدنيا. لا أتذكَّر من هذا المشوار سوى زهقي من التفتيش عن حاوية نفايات وكفَّاي ملتصقتان بدبق النايلون. لا، ولكنّي أتذكَّر أيضًا طعم الأكيدنيا؛ ذلك الذي لن يعود أبدًا بمثل تلك الحلاوة.

لا علاقة لهذه الحلاوة بفعل التذكُّر. ليست طيّبة بسبب أنَّها مرتبطة بالماضي وأيَّام الشباب، حيث يجمّل الحنين الأشياء التي لا تُستعاد. لا في طفولتي ولا في شبابي ما يستدعي ذلك الحنينَ الذي يشبه السجن. إذن، لستُ هنا في هذه الغرفة كي أعود إلى الوراء، ولا كي أراك وأرى معك كيف كنتُ أنا صبيَّة، وكيف كان الربيع جميلًا وقويًّا في البلاد. البلاد التي انقضت، وقعت وتشظَّت كآنية كبيرة من زجاج. سيكون ذلك مأساة وحزنًا خالصًا ومرارة. ولأنَّ رؤيتك، وأنت في العمر الذي صرتَ فيه، هي بالضبط ما سيقفل خيالي نهائيًّا عن اللّعب بصورتي ويُريني إيَّاها بوضوح، حيث ستكون كمرآتي. فأنا لا أضع نظَّارتي حين أكون أمام المرآة أغسل وجهي أو أتكحَّل، ليس بسبب خوفي من صورتي إن أنا رأيتها نقيَّة واضحة، بل لأنّي أعرف أنّي أجمل من تلك الصورة بكثير، بمسافات، وبأنَّ دقَّة انعكاسات مسامات جلدي وتجاعيدِه والطبقات الرَّقيقة لتهدّل عنقي تحت الذقن، كلّ ذلك هو وَهْمٌ وشطط وادِّعاء «علميّ» لا لزوم له أو حاجة إليه. إذْ، من سيقترب من وجهي بهذا القَدْر! ولماذا قد يفعل، ولأيّ ضرورة سيتنفَّس شخص ما في خلقتي وهو يحدِّق مفنجرًا فيَّ عينيه؟ سوى طبيب الأسنان مثلًا، الذي لا ينظر إلَّا إلى الفم. في أيّ

حال، ليست التجاعيد دليلَ العمر المتقدِّم، بل الأسنان... حين تَحُول الأسنان، قليلًا، دون الاستمتاع بقضم الأكيدنيا في السرفيس، فيجري العصير على الذقن وينقح على الثياب، ولا تعود المشكلة في مكان رمي نفايات الأكيدنيا... فقط.

تروي ذكرياتٍ لنا معًا، في رسالتك الأخيرة. أجهدت رأسي في الرجوع إلى ذلك الماضي ولم أجد شيئًا. حاولت أن أتخيَّل ذلك البيت الغريب الذي زرناه معًا، والذي تقول إنَّه لأحد أقربائي. لا شيء. لماذا آخذك إلى أحد أقربائي؟ لماذا أكلنا لحمًا مشويًّا أمام دكان الجزّار وبيتي على بُعد أمتار من المكان؟ وأيُّ فتاة من القرية قد تفعل ذلك كالسيَّاح الأجانب مثلك؟! هل أنت من يخترع؟ أم أنا من يمحو؟ هل تخلط بيني وبين فتاة أخرى كنتَ التقيتَها في البلاد ثمَّ نسيت؟ ما ترويه عنِّي لا يشبهني بالمرَّة.

أم إنَّ محرِّك ذاكرة النساء مختلف عنه عند الرجال؟ أنا مثلًا أذكر جيِّدًا أنَّك قرَّبت رأسك من رأسي مرَّة وكنَّا جالسين على الأرض تحت شجرة، واعتقدتُ أنَّك ستقبِّلني لكنَّك لم تفعل، بسبب أنِّي لم أقرِّب فمي؟ البنات عندنا لا يقرِّبن شفاهَهن. ربَّما يفعلن في كندا، لذا اختلط الأمر عليك، واعتقدتَ أنَّه ليس عندي قابليَّةٌ لمثل تلك القُبَل... وقد يكون ذلك صحيحًا. إذ، حتَّى الآن، ومهما استبدَّت بي الرغبة، لا أعتقد أنِّي أجرؤ على تقبيل رجل في الهواء الطلق. لكن القبلة ـ أو عدمها ـ ليست حكاية أو حدثًا نستعيده معًا.

لذا، ستكون كارثة إن أنت لم تتذكَّر ذلك المشوار إلى الجبل. أعني مشوار الأكيدنيا. وسأصاب بخيبة أكيدة، إذ لن أجد مشاوير أخرى،

أو أشياء عملناها معًا وكانت مفرحة إلى هذا الحدّ، أو حتّى غير مفرحة. وقد لا أجد شيئًا أتذكّره، بالمرّة. وسيكون عليك أنت، إذ ذاك، أن تروي لي من جديد ما تتذكّره، وبتفاصيل أكثر، لتساعدني قليلًا على اختراع الكلام. إذ سيكون علينا أن نتكلّم.

في كلّ الأحوال، فعلُ التذكّر هذا، بعد سنّ الخمسين، يصير سهلًا، لكن بلا فائدة، بلا جدوى. تعود حياتك السابقة في سَيَلان عجيب، حتّى من دون أن تستدعيها. تحضر أشياء بعيدة منسيّة، كأنْ اَليًا. أمكنة وروائح ووجوه أناس، وتفاصيلُ لا أهمّيّة لها على الإطلاق، مثل كلام كانت قالته الجارة من سنين بعيدة عن نجاعة فرك النّحاس باللّيمون والرّماد، وأنت ليس عندك أيُّ آنية من نحاس... هكذا. ثمَّ بمَ تفيد تلك الذاكرة وأنت، إن كنت تعلّمت شيئًا من دروسها، فقد فاتَكَ وقت التطبيق. صار وراءك...

هذا غريب جدًّا. غريب أن أتمنّى رؤيتك إلى هذا الحدّ. أنا، على فكرة، قلّما أسافر. البلدان القليلة التي سافرت إليها أصابتني بالخيبة؛ خيبة حقيقيّة، ليس بسبب أنَّ بلادي أجمل، وخصوصًا وهي في نار الحروب، بل لأنَّ وعود شركات السياحة كلّها كاذبة. يكذبون بوقاحة. يصوّرون أمكنة غير موجودة، أو هم يركّبون مونتاجات من الصور يسوّونها بالفوتوشوب. عدا ذلك، أنا لا أملك أيّ إحساس بالاتّجاهات. أضيع بسرعة. وحين أضيع وأخاف، لا أعود أجد أيًّا من العلامات التي كنت عاينتها على الطريق كي لا أضيع. تنسدّ الرؤية في عينَيّ، وأصبح من هلعي كالعمياء. ولا أجرؤ على سؤال المارّة عن طريق عودتي إلى الفندق ـ هذا في حال كنت أتقن لغة الناس هناك ـ إذ أتوقّع أن أكون قريبة بشكل قد يثير ريبتهم، أو أنّهم سيستعملون لمساعدتي إشاراتٍ في خريطة ذهنيّة لن يعلق منها شيءٌ في رأسي...

مع ذلك، أسافر للقائك. آتي إلى هنا لأراك كأنّني مشتاقة إليك، بل أنا مشتاقة إليك فعلًا، كثيرًا. كيف تفسّر ذلك؟ الشوق يتأتّى من بِعاد بين شخصين عاشا وقتًا سعيدًا، زمنًا قاما فيه بأشياء مشتركة؛ أمضيا أيّامًا كانت مليئة بهما، بما يكون جمعهما من حلو ومُرّ. ما الذي كان بيننا؟ ما الذي بقي ممّا كان بيننا ؟ ولماذا قد تأتي، ومدفوعا بأيّ شوق إلى تلك الأيّام القليلة؟ هل تستطيع أنت أن تقول لي كم عددُ تلك الأيّام؟ أنا شخصيًّا لا أتذكّر.

لكنّي، حين أستحضر ملامحك أغصّ ويعتصر قلبيَ وجهُك الناظر في وجهي عن قرب. طبعًا وجه ذلك الشاب الفتيّ. يعني، وبشكل من الأشكال، كأنّه ابني. في الفيلم العربيّ، سيكون إحساسي هذا بمثابة حَدْس، ثمّ يطلع في أحداث الفيلم أنّي أمّه الحقيقيّة التي أضاعته، أو حُرمت إيّاه من قِبَل الباشا ـ دائمًا هناك باشا ظالم يحرم الأمّهات ـ ومن الأساس كان قلبي دليلي. هذا يحدث في الحياة أيضًا. لمَ لا؟ أنا أحبّ هذه الأفلام التي أنت لا تعرف شيئًا عنها. فأنا، بل نحن، عاطفيُّون كثيرًا. أنت تعرف الديڤا أمّ كلثوم على ما أذكر، لكنّك لا تعرف عبد الحليم... ربّما سأحدّثك عن حبّي اللّامحدود لعبد الحليم، وكيف أودى بي هذا الغرام إلى التهلكة... لا، هذا موضوع حزين ومحزن، ولسنا هنا للاعترافات المأساويّة. لكن، باختصار، دمُّر هذا الرجل، عبد الحليم، حياتي. قد يبدو لك الأمر سخيفًا، أو أنّه مزاح من امرأة تريد أن تبدو أوريجينال...

لا، لا، سنتكلّم في أمور مفرحة؛ ربّما عن تلك الأيّام الربيعيّة الجميلة حين التقينا. عن الشوارع والساحات التي مشينا فيها، أكلنا الأكيدنيا أو شربنا العصائر... إلخ. وكم أتمنّى ألّا تحدّثني عن وظيفتك أو عائلتك أو بلادك، أو كيف هي حياتك الآن، إذ سأموت حينها من الضجر، ولن يكون في

إمكاني أن أداري خيبتي، وخصوصًا لو بدأتَ بسؤالي عن وظيفتي وعائلتي وبلادي. سيكون ذلك مخيّبًا، بل مميتًا، أعني منهيًا بشكل دراماتيكيّ لقاءَنا الموعود. إذ ربَّما يكون المقصود من هذا اللّقاء الموعود قلّةَ المعرفة، وقلّةَ الكلام الحاملِ للمعاني، ذلك الذي يتبادله الغرباء، ويكون خفيفًا متطايرًا كالريش في النسيم، لا يكاد يحطّ حتّى يرتفع ويدور من جديد.

دعك من عبد الحليم. سنجد كلامًا كثيرًا على أمور نعرفها نحن معًا. أصلًا، هذه الموسيقى التي لا تتوقّف في ممرّات الفندق وفي المصعد وبهو الاستقبال، وحتّى في حمّامات الغرف، نعرفها أنا وأنت. لقد اختاروا شوبّان الرومنطيقيّ لتطرية قلوب العشّاق الذين يتقابلون هنا، أملًا في دفعهم إلى تمديد حجوزاتهم وقتًا أطول. وقد يأخذنا شوبّان إلى السينما. لا بدّ من أنّك شاهدت فيلم «عازف البيانو»؛ بالاد رقم واحد أوبوس 23، والضابط النازيّ سيترك العازف حيًّا لأنّ للجمال قدرة على اختراق قلب النازيّ... أو دع هذا جانبا، ربَّما يكون لك آراء في جزئك من الكرة الأرضيَّة، منطقتك من العالم، نختلف بشأنها.

أيّ شيء في هذه الغرفة قد يكون مدعاةً للكلام، للحديث اللّطيف. كأن تفتح هذا البرّاد الصغير، فأخبرك كيف أسهر أمام ضوء البراد الخافت في مطبخ بيتي. آكل ما تقع عليه يدي، وأنا في متعة النوم واليقظة معًا. لذّة لا علاقة لها بالجوع أو بالأرق، ومتخلّصة من مشاعر الذنب. طمأنينة وخدر. سكينة بدائيَّة تشبه سعادة جِراء الحيوان. ثمَّ أعود مليئة الأحشاء والقلب إلى السرير. وأنت؟

أو إن دخلتَ الحمّام سألتُك، مثلًا، إن كنت تستعمل في غسل رأسك شامبو له مواصفات العيّنة الصَّغيرة هذه، والمصنوعَ من الأعشاب،

ويحافظ على الإفرازات الدهنيّة لجذور الشعر من دون أن يجفّف قوام الشعرة فتنقصف وتفقد لمعانها. وأنتَ؟ أم تراك صرت أصلع أو أقرع؟

سأبدو مجنونة إن تابعت الكلام مع نفسي هكذا.

مع هذا، علينا أن نتكلّم، وخصوصًا في ربع الساعة الأوّل، حتّى لا نبدو متفاجئين من مناظرنا حتّى الخَرَس، وكيف تبدّلنا هكذا وكبرنا... فالسنون التي تفصلنا عن ذلك الربيع عديدة؛ عديدة إلى درجة أنّك لن تحتاج إلى النظّارة لترى مثلًا أنّي أصبحت أقصر طولًا، إن كنتَ ما زلت تتذكّر طولي، وأنّي صرت منحنية الآن قليلًا عند كتفَيّ من الوراء، بسبب آلام الظهر إيّاها، الناتجة من تراصّ الفقرات الأخيرة، وأيضًا بعض فقرات الرقبة. ولأنّك لم تعرف أبي، لن تستطيع أن ترى كم صرتُ أشبهُه. طبعًا أبي رجل، لكنّ العمر يقرّبني من هيئته، وربّما من هيئة الرجال عمومًا. صرت أسمع نحنحته حين أتنحنح، وأرى شفتَيّ تميلان قليلًا إلى يسار وجهي، مثلَه. حتّى طريقة تمدُّدي في السرير ونومي أو شكل أصابع قدميّ. في عمري، أفكّر في أنّي فقدت كثيرًا من هورموناتي النسائيّة، ودخلت في مفترق الطُّرُق حيث الذكورة تدخل في التشكيل، قبل أن نسير، رجالًا ونساءً، في درب التماثل. وأنت؟ أليس لك اليوم ثديان صغيران؟

سأحتال، إن أتيتَ، بألّا أقف حين تدخل، بأن أكون جالسة، على السَّرير، أو على الكرسيّ الذي أنا جالسة عليه أكتب. سيكون وضعي أفضل من وضعك بكثير، إذ أنت من سيكون مكشوفًا في هيئته، وخائفًا من نظرتي. لكنّنا لسنا في مباراة. لسنا خائفَين، أحدنا من الآخر. لعلّ هذه الفكرة أوحت إليّ بها قراءةُ الرّسالة التي وجدتها هنا. فكاتبها المغرَم لا يزال شابًّا، على ما أعتقد؛ أو على الأقلّ أصغر منّا أنا وأنت. صحيح أنّ

لا علاقة للعمر بالغرام، لكنّي أنا نفسي لا أعتقد ذلك. هناك طبعًا علاقة. وأنا، إن كنت مُغرَمةً بك، على نحو ما، أو أنت كنت مُغرَمًا بي، على نحو جعلك تطير مسافة نصف الكرة الأرضيَّة إليَّ وأَوصلك إلى هذه الغرفة، فهذا يعني أنَّنا، من غرامنا، سننام، أحدنا مع الآخر. وهنا، ستنكشف أمور وتفاصيل لتحدّ من «لهيب» الغرام، إذ سوف نستنتج سريعًا أنَّه بسبب آلام ظهري لن أستطيع أن أتقوَّس تحتك بالشكل المناسب للإيلاج... أو أنَّك أنت نفسك لن تكون باللِّياقة المطلوبة لوضع معقَّد كهذا. وإن انتهى بنا تكرارُ المحاولة إلى الضجر، فسوف أُفصح لك عن عدم رغبتي صراحة، وأقترح أن نفعل شيئًا آخر، مسلّيًا أكثر. لكنْ، ماذا؟

سؤال محرج. لعلّ هذا الإحراج ساورك قبلي، أيْ قبل أن تستقلّ الطائرة، أو بعد أن حجزتَ واشتريتَ البطاقة وكتبت لي ساعة الوصول واسم الشركة... إلخ. وعلى سيرة الحجز، أفكّر الآن في إرجاء حجزي يومين أو ثلاثةَ أيَّام، لا لأعطيك مهلةً أطول، فأنا أعرف أنَّك لن تأتي لأنَّك لم تكتب إليَّ إيميل ولم تتَّصل بهاتف الفندق. سأبقى بضعة أيَّام لأنّي أحببت هذه الغرفة، ولأنَّ المطر لم يتوقّف، ولا أريد الخروج تحت المطر، فسأنتظر لأتمشَّى قليلًا في المدينة، ولأنَّ عندي وقتًا.

ولأنّ هذا العصفور يشغلني، وهو يستمرّ في التقافز في المساحة الصغيرة ذاتها. بل صار، كلَّما وقفتُ أتابعه وراء النافذة، ينظر في اتِّجاه الفندق.

لا، لن أبقى هنا لأتفرَّج على عصفور، بل لأنَّ شيئًا ما يقول لي إنَّ كاتب الرِّسالة التي وجدتُها هنا سيعود. وقد طلبتُ من عامل الاستقبال اللُّطيف أن يقول له إنّي هنا. صحيح أنَّ الرِّسالة تبدو قديمة من أوراقها،

وهي لا تحمل أيَّ إشارة تصلح للبحث عن كاتبها... وعلى الرّغم من هذا، سأحاول. ربَّما أعثر عليه في باريس؛ في أحد المقاهي التي تجمع الشبّان العرب التائهين، الهاربين من شيء ما. لن يكون ذلك صعبًا جدًّا. وأنا، في أيّ حال، لن أعود إلى بيتي. مستحيل. ثمَّ لا شيء لديَّ أفعله، ولا أحد ألتقيه. وبما أنَّك لن تأتي فسوف أمحو كندا من لائحة الأمكنة التي وضعتها كإمكانيَّة للـ...

سوف أجده، أو أجد أثرًا له في باريس. وسأعرف إن كان عاد إلى بلده بعد الثورة التي قامت هناك، وبعد أن استعاد جواز سفره. لا تختفي الناس هكذا، كالملح في الماء. وحين ألتقيه سوف...

أمّي الحبيبة،

أكتب إليك من المطار قبل أن يأخذوني، وقبل أن أصل إلى حاجز الأمن العام، فهم يراقبون كلّ حركة خوفًا من الإرهابيّين، بدءًا من باب الدخول الرئيسيّ. يدورون في مختلف الأنحاء بلباس مدنيّ...

لكنّي احتطت للأمر، وسأبدو كمن ينتظر مسافرًا. فأنا لا أحمل حقيبة وقد فتحتُ سترتي ليروا أنّي لا أحمل حزامًا ناسفًا.

أمّي الحبيبة،

لا أدري إن كانت رسالتي هذه ستصل إليك، والأحرى أنّي لا أعرف كم من الوقت في استطاعتي أن أبقى هنا. كم من الوقت، لا أدري. فقد اشتريت جريدة لأتصنّع القراءة، وها أنا أنظر مرّات إلى ساعتي، ثمّ أروح إلى الألواح المضيئة التي تعلن عن أوقات هبوط الطائرات، ثمّ أعود إلى مقعدي. هكذا سيعتقد من يراقبني أنّ طائرة المسافر الذي أنتظره قد تأخّرت، فينصرف عنّي...

لا أشياء كثيرة أستطيع أن أشغل نفسي بها، في هذا البرزخ، بين الناس الذين يدخلون ويخرجون بسرعة ولا يتأخّر واحدهم كثيرًا.

فالمودِّعون يشيرون بالأيدي ثمَّ يخرجون، والمستقبلون يضبطون ساعاتهم على مواعيد وصول الطائرات فلا يُطيلون. يبدأون بالتوجُّه إلى الأبواب الخارجيَّة فورَ تعرُّفهم من بعيد إلى مسافرهم. أستطيع أن أتسلَّى قليلًا بالتفرُّج على أشكال الناس وأجناسهم العديدة، وكيف يودِّعون أقرباءهم أو أحباءهم، كلّ بحسب لونه وأصله وملَّته. وأستطيع، من هيئاتهم، أن أحزر كيف سيتصرَّفون. أقول: هذه المرأة سودانيَّة، وهي ستبكي حين سيتركها الشابُّ الواقف واجمًا قربها، ابنُها، ويعبر إلى الداخل. وهذه الشابَّة الشقراء السمينة التي تتنطَّط ولا تهدأ، ستقفز فَرَحًا وهي تعانق مَن ستستقبله...

هذا لا يعني أنّي أكتب إليكِ كي أبدو منشغلًا. لا. أنا أريد إخبارك بما حدث معي قبل أن تعرفي من غيري. وأنت تصدِّقينني، يا أمّي، كما فعلتِ دائمًا. لا، ليس دائمًا، ولكن ليس لي أحد غيرك. لن تتمكَّني من الدفاع عنّي، أعرف ذلك. لا أحد يستطيع الدِّفاع عنّي. لكن إن أنا كتبتُ إليك، فستعرفين، على الأقلّ، أنَّك غالية على قلبي، وأنّي في هذا الظرف الصعب أفكِّر فيك. هذا أضعف الإيمان. وهي ربَّما طريقتي الوحيدة كي أعتذر إليك... ولو أنَّك لن ترحميني، كما كنتِ دومًا. لم ترحميني، منذ أخذوني من البيت أوَّلَ مرَّة. قبل خروجي معهم وهم ينهالون عليَّ بالضرب، قلت لك إنَّها قضية حشيش، وما من داعٍ لخوفك. لم تصدِّقيني. لم تصدِّقيني وبصقتِ في وجهي. ربَّما أردتِ إفهامهم أني فتًى مهذَّب، أَحسنَ أهلي تربيتي، ويبصقون عليَّ لأنَّهم مواطنون صالحون يصدِّقون العساكر. لذا، أقول لك الآن إنّي لم أزعل من البصقة. بقيتْ أجملَ ذكرياتي بصقتُك على وجهي، إذ ما جرى لي بعدها ... لن تتصوَّري ما جرى لي.

كان عليَّ أن أسمع كلامك. كان عليَّ أن أحني رأسي وأكون مطيعًا دومًا. لا أدري الآن إن كان ضربُ أبي المتكرِّرُ، بالحزام الجلديّ أو بالعصا، قد أفادني، أم أنَّه، على العكس، كان يراكم داخلي نوعًا من الغضب. ليس غضبًا فقط. كانت إهانة مستمرَّة، لا أجد حتَّى الآن لها مبرّرًا. حتَّى الآن يؤلمني جسمي من ضربه لأنّي كنت صغيرًا وبريئًا. لم أفعل يومًا ما كان يستحقّ ذلك الضربَ. كان يضربني دائمًا أمام الناس. يجرّني خارج البيت ليُري الناس أنَّه يضربني، وأنَّه يربّي ابنه، وأنَّه صحيح رجل فقير لكنَّه محترم ويعتني بأسرته.

فات الآن وقتُ العَتَب، حتَّى عليك، إذ لم تحميني مرَّةً منه. لماذا؟ لأنَّه سيضربك معي، أعرف. وسيضاعف ذلك غضبه، أعرف. لكنَّ أمَّهات كثيرات كنّ يقفن أمام الأب، ينحنين فوق الولد للذود عنه، وتصيبهنّ الضربات إلَّا أنتِ. تغسلين رأسي وتردِّدين: معه حقّ. معه حقّ، يريدك أن تكون رجلًا؛ رجلًا ذا أخلاق عالية، ويفتخر بك.

كان أبي يضربني بمزاج وقناعة، كأنَّه يهيِّئني لكلّ أشكال الضرب التي ستأتي. يا سبحان اللّه. وهو بالفعل، ومع الوقت، حسّنَ مقاومةَ جلدي وعظامي، وخفَّف إحساسي بالألم. صار في استطاعتي شدّ عصبي متوقّعًا ألمَ الضربة. عرفت أهمِّيَّة الاستعداد للألم حين صرت أذهب إلى النادي. النادي! كنَّا نسمِّيه النادي، وليس فيه من النوادي سوى كيس الترابة الذي نتبارى في لكمِه بقبضاتنا شبه العارية. نلفّها بكاوتشوك الدواليب الداخليَّة التي كان الملازم يأتينا بها ويقصُّها على شكل أربطة. الملاكمة أيضًا كان هدفُها تحسينَ تربيتنا، وإبعادَ الأفكار الهدّامة عن رؤوسنا، وكذلك طردَ صور أجساد النساء من خيالاتنا؛ تلك الصور البذيئة التي تجعلنا نمارس العادة السرِّيَّة، لأنَّ تلك العادة القبيحة التي، إن لم تودِ

بنظرنا، فهي تمتصّ قوّة عضلاتنا وتُضعف طاقتنا القتاليّة، وتقضي على الإيمان بالمثُل الكبيرة.

لماذا أعود إلى تلك الأيّام؟ لأن لديَّ وقتًا طويلًا أصرفه هنا، وأنا محتار في أمري، ويعنّ لي أن أتكلّم إليك، فأنت لم تريني منذ سنين، ولا تعرفين شيئًا عنّي منذ خرجت، أَخرجوني، من البيت أوّلَ مرّة، ثمَّ حين مررتُ سريعًا في المرّة الثانية ولم أمكث... وينبغي لي أن أقول إنَّ هذه الرّسالة أوحت إليَّ بكتابتها امرأةٌ كانت هنا...

امرأة في متوسّط العمر، أو أكثر بقليل. وقفت هنا، قرب كيس القمامة الكبير. لاحظتُ حيرتها وأنا أتفرّج على الناس. نظرتْ حولها، ثمَّ جلست على أحد المقاعد. سحبتْ أوراقًا مطويّة من حقيبة يدها، فتحتها وراحت تقرأ. ثمَّ قعدت ساهية نصفَ ساعة تقريبًا. بعدها، شقَّت الأوراق، ألقتها في كيس القمامة البلاستيكيّ، ومشت بسرعة إلى الداخل حيث أبوابُ الإقلاع.

انتظرتُ قليلًا، ثمَّ رميت جريدتي في ذلك الكيس. كان سهلًا بعدها أن ألتقط الأوراق، التي ألقتها المرأة هناك، مع جريدتي. كأنّي غيَّرت رأيي، أعني فيما لو كان هناك من يراقبني. لم أعد إلى مكاني قبل التوقّف طويلًا أمام لوحة وصول الطائرات. تلك أساليبُ تعلّمتها جيّدًا، في وقت من الأوقات. كلّ معلومة تنفع في يوم من الأيّام... ثمَّ فوجئتُ بتلك المرأة تعود إلى الكيس باحثةً عن الأوراق التي رمتها، فازدادت حشريَّتي لمعرفة ما فيها، إذ بدا عليها الأسى لفقدانها. بعض الأسى والكثير من الحيرة. فعمّال التنظيفات الذين بحثت عنهم السيّدةُ بعينيها لم يغيّروا الأكياس التي ما زالت مليئة بالنفايات...

المهمّ. المهمّ هو أنْ ليس في تلك الأوراق ـ التي شقَّتها مرَّةً واحدة فقط فلم يصعب جمعُها ـ ما هو فعلًا مهمّ. باختصار، هي امرأة انتظرت حبيبًا لها أو عشيقًا قديمًا، وخاب أملها لأنَّه لم يأتِ. لكنّي، في لحظة إلهام لمعتْ في رأسي، قرَّرت الاحتفاظ بتلك الرّسالة. ففيها تقول إنَّها ستلحق برجل آخر إلى باريس، لتتبُّع أثره. لكنَّها دخلت في البهو الخطأ، حيث لا شركات طيران في هذا الجزء من المطار تسافر إلى باريس. هذا غريب. ثمّ، لو لم يكن في الأمر سرٌّ فلمَ عساها عادت تبحث عن أوراقها؟ هذه المرأة التي قالت، أيْ كتبتْ، إنَّها يستحيل أن تعود إلى بلدها. وفي اعترافاتها تلك، يُخيَّل إليَّ أنَّ بلدها هو لبنان. هنا أيضًا يكمن سرّ كبير: هذا البهو ليس فيه أبواب تؤدّي إلى شركات طيران تسافر إلى بيروت. تحقَّقتُ تمامًا من ذلك بتكرار قراءتي لوحاتِ الإقلاع ولوحات الوصول. هكذا قرَّرتُ أن أستفيد من هذه الرسالة في حال تتبَّعوا أثري وعثروا عليَّ هنا.

ما علينا. أريد الآن أن أقول لكِ إنّي اشتقت إليك يا أمّي على الرّغم من كلّ شيء. مضى زمن طويل لم يَرَ فيه أحدُنا الآخرَ؛ طويل إلى درجة أنّي أشكّ إن كنت ستعرفينني لو رأيتِني. أنا تغيَّرت كثيرًا. شكلي تغيَّر. صرت هزيلًا، وسقطت أسناني، والصلع حلّ في رأسي. ستقولين إنّي أستحق كلّ هذا، وقد تُنكريننني لأنّي أصبحت ابنًا للشيطان. معك حقّ. لكنْ، بعد ما حلّ بي، هل ينفع أن أطلب منك السّماح؟ أعرف أنَّك لن تسامحيني، ولا أمل لي في ذلك. أقلُّه ستعرفين أنّي ما زلت في قيد الحياة في حال وصلت إليك هذه الرّسالة. ففي أخبار الموت التي تمطرها السماء كحجارة من سجّيل، أتمنّى أن تكوني أنت ما زلت في قيد الحياة، وأنَّك هربت في الوقت المناسب، برًّا أو بحرًا... لذا، أنا أكتب رسالتي،

لكنّي لا أعرف إلى أيّ عنوان أرسلها! لو حالفني الحظّ فسأحملها معي، وأبحث عنك، وإن وجدتُك أتركها بين يديك لأنَّ الكلام صعب جدًّا. وسيكون أكثر صعوبة إن كنت أنوي أن أروي لك قصّتي، كما يقولون. وإن كان القَدَر يريد لي أن أدفع أثمان ما ارتكبتْ يداي، فستكونين أنت من يقرّر، العفوَ أو العقاب. أنت ستكونين ملاكيَ أو جلاّدي. فالعفو لا يعني النسيان أو المحو، لكنَّه شفقة على ابن ضالّ، لا يعرف كيف ضربته الرياح العاتية فصار إلى ما صار إليه.

أمّي الحبيبة، أنا تغيَّرت كثيرًا. تغيَّرت عن الابن الذي كنتِ تعرفينه. أنا مريض الآن؛ مريض في جسمي ومريض في روحي. ولم يعد من أمل في الشفاء. كلّ ما أحلم به هو الهرب كي لا أموت في السجن. أحلم بالهرب لأموت في العراء؛ لأَنوس كالشمعة وأنطفئ في الفلاة، في صحراء اللّه الواسعة. بعدها، سيستلم الشيطان روحيَ؛ روحي المريضة، وليفعلْ بها ما يشاء...

لم يقل لي أحد لماذا أتى العساكر وأخذوني من البيت. بدأوا بالضرب من دون أسئلة أو تحقيق أو تهمة. كانوا يضربونني ويتركونني على الأرض، ثمَّ يجرّونني إلى غرفة صغيرة يعودون إلى سحبي منها، وإلى الضرب من جديد. نقلوني بعدها في سيَّارة إلى زنزانة. قالوا: أصدقاؤك اعترفوا، وتأكّدنا ممَّن يعرفونك في النادي. قلت: حسنًا، بما أنَّ الكلام بات متاحًا، فما هي تهمتي؟ وماذا روى عنّي أصدقائي؟ فاعتبروا أنّي أتذاكى عليهم.

ثمَّ مضت الأسابيع، وبعدها الشهور. واختلفت أساليب التحقيق. لا سبيل الآن إلى أن أروي التفاصيل، لكنَّهم كسَّروني. كانوا يبولون

عليَّ ويتغوَّطون أيضًا. أكون غارقًا في بولي وفي غائطي وهم يأتون بالدلاء والجرادل من دورات المياه ويدلقونها عليّ. لم أعد أبالي بالألم، لكنّ الخوف الذي دخل روحي جعل أوقات «الراحة» عذابًا خالصًا. ليس الخوف من الموت. جهنّم لن تكون أقسى عليّ من هنا. هو خوف لا أعي مصدره. يأتيني حين أكون وحدي، حتَّى إنّي صرت أفضّل أن أكون معهم. أسمع مثلًا نكات أحدهم، أقول إنَّه في النهاية بشريّ وله أهل، وربَّما أولاد... وأكرّر أنّي بريء.

ذلك الخوف؛ ذلك الهلع استحوذ عليَّ تمامًا. أخذني إلى قِيعان عميقة سوداء، وجعلني على حافَّة الجنون حين بدأوا باغتصابي. لم يكن ذلك مؤلمًا بشكل غير محتمل، إلّا لمّا كانوا يستعملون القناني أو الهراوات... خوف مضاعَف من أن يكون اغتصابي هذا يحدث في أحلامي، في أحلامي فقط، كمثل كوابيسي المتكرّرة عن الخراء، ومحاولاتي العبثيَّة للخلاص منه؛ للهرب من تلوُّثاته. أعني حتَّى حين أكون في الأحلام خارج السجن، في أيّ مكان... صرت لا أعرف الفارقَ بين اللَّيل والنهار؛ بين ما يجري لي في الحقيقة وكوابيسي. الهلع.

قلت لهم : أريد أن أعترف. أنا بالفعل كذبت عليكم، وقمت بكلّ ما تتَّهمونني به. قالوا يجب أن تبرهن على صدقك وتوبتك. قلت: أبرهن. قالوا: تتعاون معنا، وتفعل كلّ ما نأمرك به. ونحن نراقبك، وسنعرف.

ذهبت إلى أبعد ممَّا توقَّعوه منّي. ليس من السهل إقناعُهم بأنّي صرت خادمهم. كانوا حذرين ويُكثرون من وضع الفِخاخ، لكنّي نجحت في كلّ الامتحانات، إذ لم أكن أكذب، ولا عندي ما أُخفيه عنهم. همّي الوحيد ألّا يعيدوني إلى هناك...

وشيئًا فشيئًا، صرت أستلذّ بقوّتي. أستطعم لذّة تحوُّلي العجيب، وكيف صرتُ أنا من يُرهب الخليقة، فيصبح الناسُ عند قدمَيَّ كالجرذان المصعوقة وينادونني «سيِّدي». رأيتني آنذاك، أعني في تلك الفترة المباركة في البيت وقد صرتُ رجلًا؛ رجلًا بكلّ معنى الكلمة، يفخر به أبوه الذي لم يعد في حاجة إلى تربيته، إذ بات من الواضح أنَّ الدولة استلمت عنه المهمَّة وأحسنت صُنعًا... حتَّى، كما تذكرين من دون شكّ، حتَّى طردني من البيت. اشتكاني الناس إليه. قالوا: ابنك، حماه اللّـه، يقوم بتعذيب أبنائنا بعد اختطافهم. لا أحد يريد منه سوى أن يعيدهم إلينا. ربَّما استحقُّوا ما أنزله فيهم، لا بأس، نريد فقط أن نعرف أين مكانهم، وإن كانوا لا يزالون أحياء. فليتركْهم يعودون إلينا إن هم نالوا العقاب الذي ارتآه لهم. صدّقهم أبي فورًا ولم يستفسر منّي. قال: اخرج من بيتي وإيَّاك أن تعود. ولمّا رفع يده يريد أن يصفعني، أمسكت ذراعه أريد أن أكسرها. بصقتُ في وجهه وخرجت. لم تأخذني شفقةٌ عليه. شعرت بأنَّه يدفعني إلى حيث أصبحتُ، لأستقرّ هناك، معفيًّا من مساءلة نفسي، وسعيدًا في عالمي السفليّ.

عالمي، عالمي السفليّ هذا، كان يحفظني كرحم كبير ودافئ، بما أنّي لا أهل لي. كنت فقط أتمنَّى لو أنّي تعلَّمت أكثر، إذ كنت نلتُ الترقيات. لكنّي كنت قنوعًا. في أيّ حال، حيث كنتُ، أو صرتُ، ما عاد ممكنًا أن أنسحب أو أن أقف على الحياد، فلماذا أعذِّب نفسي؟ من أنا لأدَّعي أنَّهم فاسقون وقَتَلة؟ أم أنّي أفضِّل العودة إلى الجحيم؟ أنا أحبّ الحياة ولست وحيدًا فيما أعيشه. نحن أكثر من رمل الصحراء. أنا لا أعرف كلّ الأسرار أو المعلومات التي يجمعونها، لذا، كان من الأفضل أن أصدِّق أقوال أسيادي ورؤسائي وتعاليمهم. هل كلُّهم حراميَّة وساديُّون؟ لا،

وأنا لي من بينهم أصدقاء... نأكل ونشرب ونمزح. وأحيانًا نتبادل الخبرات في أساليب التحقيق. السياسة ليست من اختصاصنا. هم ضليعون فيها ولديهم أجهزة وملفّات، وهم مصدر معلوماتنا ولا نثق بمن يكره بلدنا وقائدنا، لأنّه يكون يكرهنا. والحقيقة أنَّ مِراسنا في التعذيب جعلنا نعرف تمامًا مصيرنا إن نحن أشفقنا على الناس. يعني نقعد مكانهم؟ ذلك الخوف القديم اقتلع من قلبي كلَّ الشفقة. كانت القسوة ملازمة للسَّلامة، وكان من الأفضل ألّا نفتّش عن الحقيقة بالاستماع إلى المعتقلين. فالمعتقل يكذب دومًا للخلاص بجلده.

لا ينفع التفكير، ولا التردُّدُ. حتّى عندما نذهب إلى أبعدَ ممَّا طُلب منّا، كما حدث معي وأنا أضرب أحد المتفلسفين العملاء، فطارت الهراوة من ظهره إلى رأسه فأعطاكم عمره. قال الريّس: ضع عليه رقمًا وألقِه بعيدًا.

فهمت، بصورة نهائيّة، أنَّ اللّـه غائب عن هذا العالم السفليّ، وأنّه ترك لنا القيادة. إذن، له في ذلك حكمة، فأنا مؤمن. وهو من مدّني بهذه القوّة التي غدت جبروتًا لأنّه هو المخطّط لكلّ شيء منذ البداية، بداية كلّ شيء، حتّى ولو لم تفهم عقولنا الصغيرة هدفه العظيم. لذا، أنا مطيع لمن مرتبتُهم فوق مرتبتي. وإن كانت لا تكفي الطاعة، فأنا من الذين يبلون بلاءً حسنًا بمبادرة منهم تستبق الأوامر.

لم أكن أريد أكثر من ذلك. ربَّما كنت أفضّل أن أرسل إليك مزيدًا من المال. كان ذلك في ذهني، لكنّ الوقت داهمني. بعض المسروقات الصغيرة كانت لا تزال في جيبي حين انقلب العالم. اختفت الرؤوس الكبيرة فجأة وهجم علينا الناس في مقرّاتنا. تحوّلت مظاهراتُ الملحدين الفاسقين والأوباش إلى أنهار من البشر. لا أدري الآن كيف تخلّصتُ من

أيديهم التي نزلت عليّ بالضرب من كلّ جهة؛ بالأيدي والعصيّ والحجارة. هربت.

هربتُ لا ألوي على شيء. لياليَ وأيّامًا طويلة أسير تائها على وجهي وأنا مدمًّى. غسلتني، في إحدى الضواحي، امرأةٌ في النهر. سألتني إن كنت ممَّن فرّوا من السجون، فقلت لها نعم. وحين رجع أبناؤها إلى البيت رحتُ أخبرهم كيف أنّي كنت في سجن لا أعرف أين موقعه، أخذوني إليه معصوب العينين، وكيف عذّبوني، وبالتفاصيل التي أنا على علم جيّد بها. و... هكذا وجدتُ نفسي في المعارضة... ومن معارضة إلى أخرى، اكتشفت أنّ هناك طرقًا للسفر. قلت مهما تكن الأثمان والأخطار فسأسافر. في أيّ بلد من بلدان اللّه سيكون وضعي آمنًا. و... سأبدأ حياة جديدة.

أمّي الحبيبة، هنا بدأتُ حياة جديدة فعلًا. تعلّمتُ ما هو ضروريّ من لغة البلاد في وقت قصير. ثمَّ دخلت نفق الأوراق. نفد كلّ ما كان معي من أموال بعد أن دفعت مبلغًا كبيرًا إلى المهرّب الذي وضعنا في البحر، ثمَّ إلى الذي دلّنا على الطريق البرّيّ. وسرنا أسابيعَ على الأقدام. عملت بنصيحة كلّ الناس الذين نصحوني، أفرادًا ومؤسّسات، للحصول على أوراق. وفي المقابلة الأخيرة مع دوائر الإعانة وطلبات اللّجوء، سحبتِ السيّدة المسؤولة دفترًا صغيرًا من دُرج مكتبها، فتحته وقالت: هناك مُواطن لك يشهد ضدّك، يقول إنّه تعرّف إليك في المخيّم وراقبك، وإنّك كنت تشتغل مع مخابرات النظام، وقد قمتَ شخصيًّا بتعذيبه في أقبية أحد السجون. أنكرتُ بشدّة. قالت السيّدة: حسنًا، لكنْ سنُجري تحقيقًا.

لم أعد إلى هناك، كذلك لم أرجع إلى المخيّم خوفًا ممَّن قد يتعرّفون إليّ. نمت في الطرقات مع الأفغان والإثيوبيّين. كان الصليب الأحمر وبعضُ

الإسلاميّين يأتوننا بالأكل وبالبطّانيّات. لكنّهم طردوني بسبب الكحول. صرت ألجأ إلى تجمّعات حاملي القناني السكارى. ولم يَطُلْ بي الأمر بينهم. ضربوني وأخذوا سترتي الشتويّة في عزّ البرد.

أنا الآن أفكّر في العودة. أعني في هذه اللّحظات لن يسمحوا لي إذا قبضتْ عليّ الشرطة سوى بالعودة إلى البلاد، إن سمحوا. يهمُّهم أن يتخلّصوا منّا. أستطيع أن أشتري تذكرة سفر وأغامر بدخولي الحدود. ومن هناك سأجد طريقة للهرب من جديد. عليّ أن أجد بسرعة من يزوّر لي أوراقًا. في كلّ الأحوال، لا أستطيع أن أبقى هنا، لا في هذا البلد ولا في المطار. ويبدو أنّه حتّى الآن ما زال متاحًا لي أن أتابع الكتابة إليك...

كان ذلك اليوم باردًا ومُمطرًا. مطر من نوع الرذاذ الذي لا ينقطع، والذي تنفذ رطوبته إلى العظم. وكنت أحتمي منه مُلصِقًا ظهريَ إلى فيترينة سوبرماركت، أتحدّث إلى شابٍّ يوزّع جرائد دعائيّة مجّانيّة على الداخل إلى الدكّان الكبير والخارج منه. يعني كان يشحذ. كنت أضحك ملءَ فمي من أحلامه بالسفر إلى هوليوود لأنّه هناك سيصبح ممثّلًا كبيرًا، ومن هناك سوف يساعدني... إلخ. عرفت من لكنته أنّه من أوروبا الشرقيّة، سألته، قال: ألبانيا، مسلم مثلك، وأراهن على أنّك عربيّ. أُعجبتُ به، أو لنقل إنّي اطمأنَنْتُ إليه لأنّه شحّاذ يعيش من مجهوده، لا من التقارير والسرقات وتشغيل البنات. ثمّ خرجتْ امرأة شقراء ستّينيّة. توقّفتْ تبحث عن بعض القطع النقديّة في حقيبتها لتعطيها للألباني. قالت لي: أنت مبلّل، كيف تفعل في هذا البرد؟ من أيّ بلد أنت؟ آه، خسارة، أنا أعرف بلدك، أحببته، وزرته مرّات عديدة... إلخ، إلخ. ولمّا رأت أن لا مزاج لي للكلام على روعة بلدي، استدركتْ وسألتنا: أين تنامان؟ هناك مؤسّسات تُعنى بمن لا... في هذا البرد القارس... قال الشابُّ الذي

معي، بعد أن وضع النقود في جيبه، إنَّه ينام عند صديق له، وهو سيهاجر إلى أميركا قريبًا. «وأنتَ»؟ سألتني. ولمّا أدرتُ رأسي لا أريد الكلام، اعتذرتْ إليَّ لتدخُّلها هكذا في شؤوني. سألتنا إن كنَّا نريد أن تشتريَ لنا شيئًا من الداخل، ما عدا الكحول، قالت، ثمَّ تمنَّت لنا يومًا طيِّبًا ومشت.

لكنَّها عادت في مساء اليوم التالي وفي يدها كيس نايلون كبير، وبدأت تحكي عن الأنانيَّة البغيضة، وعن وجوب التفكير في الآخرين... إلخ، وأنَّ كلّ إنسان معرَّض للأيَّام الصعبة، فكيف إذا عانى حروبًا وإرهابًا وهجرات... إلخ. ثمَّ سحبتْ سترة كبيرة منفوخة من كيسها، قدَّمتها إليَّ وهي تعتذر وتتمنَّى أن أقبل هديَّتها المتواضعة. كان الألباني أعطاني شالًا صوفيًّا سميكًا، وحالما رأى السترة استدار حولي وفكّ الشال عن رقبتي وقال: هيّا، اشكرِ السيِّدة. لبستُ السترة فبدت سعيدة جدًّا، وراحت تشكرني لأنّي قبلت هديَّتها التي وصفتها بالصغيرة، بدلًا من أن تنتظر منّي تعابير الامتنان والعرفان بالجميل.

نزلت مع الألباني إلى ضفَّة النهر لنأكل. فتح الأكياس وبدأ يصفّ ما فيها على الحشيش. كنتُ، كلَّما ضاق نفَسي، أذهب إلى النهر وأروح أنظر إلى مياهه، وشيئًا فشيئًا تستكين نفسي حتَّى النعاس الجميل. لا أدري لماذا لم أذهب يومًا إلى ضفَّة نهرنا لتهدأ روحي. كأنّي نسيت كيف كنت أسبح فيه مع الأولاد فنبرطع في السعادة الوحيدة المتاحة لنا. نأكل حشائش برِّيَّة وبيض الأعشاش. كأنَّ المياه هي غيرُ المياه. كأنَّها طفولة أخرى لرجل آخر.

... ثمَّ راح الألبانيُّ في سيناريو فيلم من أفلامه. قال إنَّ أمّي قد دعت لي في ليلة القَدْر، أو ما يعادل ذلك في ألفاظ معجمه هو. قال إنَّ عليَّ أن أبتسم لتلك المرأة التي أعطتني السترة، وأن أسايرها وألاطفها،

أقلُّه أردّ على أسئلتها. وأضاف أنَّ السترة، وهو يقلّب في ذيلها، من النوع الممتاز، وهي ماركة غالية الثمن لا يلبسها إلّا الأغنياء. وقال إنَّ هذه المرأة غنيَّة بالتأكيد، وتعيش وحيدة بالتأكيد، وإنَّها «معجبة» بي بالتأكيد. وراح يراهنني على أنَّها ستعود، ويقول إنَّه خبير بالنساء اللواتي في مثل عمرها، يعشن وحيدات بائسات في بلدانهنَّ التي لا تشبه بلداننا، حيث نحن نعتني بالعجائز ونحترم الكبار في السنّ. تركتْه يحكي وصرنا نضحك على غرام العجائز، وكيف أنَّ النبيّ محمَّدًا حذَّر من حبّ العجائز لأنَّه يقصّر الأعمار... حتَّى رحت أنهره قائلًا إنَّها في عمر أمّه. فتوقَّف عن المزاح وقال: اللّـه يرحمها. لا نتكلَّم على الأمَّهات.

حين دخلتُ بيتها كنت مقتنعًا بأنَّ اللّـه يريد أن يساعدني، وهو من أرسل إليَّ هذه المرأة. يريد أن يختبر نيَّتي في بدء صفحة جديدة من عمري. لم يكن بيتُها بيتَ أثرياء كما توقَّع الألبانيّ. لكنْ، بالنسبة إليَّ، كان الدفء أعلى درجات الفخامة، يليه الفراش، أيُّ فراش.

كان عليَّ أن أنسى حياتي السابقة بحلوِها ومرِّها، وقد نسيتها فعلًا. أنزل في المغطس الملآن بالمياه الساخنة، لا أريد أن أخرج منه ولو إلى الجنَّة. تلك المرأة الرسولة، كنت أقبّل يديها. أفعل كلّ ما تطلبه منّي. أساعدها في التنظيف، وفي ترتيب البيت والغسيل والكيّ، وأيضًا في الطبخ، وأفاجئها أحيانًا بطبيخ من عندنا.

تسألني أحيانًا عن حياتي، فأقول لها إنّي لا أحبّ أن أتذكَّر الماضي الرّهيب، وأريد أن أنسى عذاباتي. صارت بعد ذلك تحاول أن تساعدني كي أحصل على أوراق، ولم تفهم رفضي. قلت لها لا أريد أوراقًا، ثمَّ سألتها إن كان إيوائي يعرّضها للخطر، فأجابت بأنَّ القانون يمنعها من إيواء المهجّرين الغرباء، وخصوصًا مَن لا يملكون أوراقًا، لكنَّها امرأة حرَّة تفعل

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ما يحلو لها. لذا شدَّدتْ عليَّ ألَّا أخرج من البيت، وألَّا أفتح الباب لأيّ طارق. حتَّى الستائر ينبغي لي أن أُبقيها مغلقة، والأضواء مطفأة ما دامت هي في الخارج، هكذا حتَّى نجد حلاً.

حين تكون في عملها، أشغّل الراديو على المحطَّة التي تبثّ بالعربيَّة كما علّمتني، أو أتفرَّج على التلفزيون إن كان هناك حفلة ملاكمة، أو كمالٌ جسمانيّ، أو كرةُ قدم. أتذكَّر النادي، وأحاول أن أحزر مَن مِن الشباب وشى بي حينذاك، أو أن أسترجع كلامًا قلته لم يعجبهم. ثمَّ أقرّر في رأسي أنَّها الغيرة. كان أحدهم يغار من جسمي الجميل وقوَّة ضرباتي فاخترع وشاية، وقال إنّي شتمت الرئيس القائد وإنّي شيوعيّ، أو إسلاميّ إخونجيّ. وأنا لا أستبعد الآن أن أكون قد تفاصحتُ أمام الشباب لأُبعد عنّي ذلّ الشابّ الذي يضربه أبوه أمام الناس كالولد الصغير... صرت أدَّعي أنَّ لي آراء وأفكارًا، وأنّي أعرف عن البلد أشياء كثيرة لا يعرفها غيري، وهكذا...

كان ممكنًا أن أصبح ملاكمًا مشهورًا...

لا أندم على شيء، إذ يجب أن أعرف ما هو الشيء الذي ينبغي لي أن أندم عليه، وأنا حتَّى الآن لا أعرف. لا أدري ما كان في داخل أوراق الاعترافات والندم التي وقّعناها بالدم، كما طلبوا منَّا. ثمَّ علامَ أندم إن كان ليس أمامي خيارات كثيرة... ربَّما يجب أن أندم على مبالغاتي في استعراض قوَّتي على المعتقلين، أو على وشاياتي الكاذبة بحقّ أولاد الناس. لكنّ اللّه يفهم أنّي كنت مجبَرًا، لكنَّه ربَّما سيقول لي إنّي كنت أستمتع بأفعالي وأفخر بها... هذا صحيح، وحينها سأسأله: ما الذي أدَّى بي إلى ذلك؟ وأنت، لماذا تركتني ولمَ...؟

حين تكون المرأة خارج البيت أشعر أحيانًا بحزن كبير. أقول في نفسي إنَّ حياتي بلا معنى، وإنَّ هذه المرأة سوف تطردني قريبًا من بيتها لأنَّ لكلّ شيء حدودًا. ولن أستطيع الاستمرار في الكذب بالنسبة إلى أوراقي.

صرت، في غيابها، أفتح الخزائن والأدراج. عرفت من أوراق لها أنَّها في أواسط الخمسينيَّات، أي أنَّها أصغر مما يبدو عليها بكثير. ربَّما بسبب التجاعيد في وجهها ويديها، والأرجح بسبب شاربها الذي لا تنتفه. لا تنتف شيئًا، لا حاجبيها ولا إبطيها ولا ساقيها. وهي صارت تتمشَّى أمامي بثياب مكشوفة بلا حَرَج، فأقول: هي هكذا حرَّة في بيتها. هكذا هم الأجانب. لا يخجلون من العري مثلنا. أنا كنت أخجل، لكن هي لا.

ثمَّ راحت تُخبرني عن حياتها مع الرجل الذي ما زالت ثيابه في الخزانة. تخبرني كيف خانها، وكيف سلب منها أموالَها واختفى. وفي مرَّة سألتها، لأُبدي اهتمامًا بحكايتها، لماذا تحتفظ بثيابه في بيتها بعد كلّ ما فعله بها... ضحكت وقالت إنَّها عاشت معه أجملَ أيَّام حياتها، وهي ما زالت تحبّه، وإنَّه سيعود ذات يوم لأنَّ أحدًا في العالم كلّه لن يحبّه كما أحبَّته هي. قالت إنَّها تضع ثيابه في الشمس كلّ فترة، وتغسل القمصان البيضاء وتكويها، إذ يعتريها اصفرار الخباء. ولمّا سألتها كيف أعرفُه حين يأتي كي أفتح له الباب؟ قالت: لا عليك، إنَّه يحتفظ بالمفتاح...

دبّ القلق فيّ، منذ ذلك اليوم، ولم أعد إلى السترة التي أعطتني إيَّاها، إذ صرت أشمّ رائحته فيها. ولم أعد أقترب من ثيابه في الخزانة، ويقفز قلبي خابطًا أضلاعي إذ أسمع وقع أقدام على السلّم. فكَّرت في أنَّه في حال رجع وهي في الخارج، سأقول إنِّي المستأجر الجديد، ولا أعرف شيئًا عن المرأة التي كانت تسكن هذه الشقَّة، بل سآخذ منه المفتاح.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

كنت أعرف أنَّ نعمتي لن تدوم، وأن اللّـه لن يُمهلني طويلًا. هكذا بلا سبب، إذ ماذا، أو مَن سيستفيد من قصاصي؟ صرت لا أطيق قعودي في البيت وحيدًا. وحين ترجع المرأة أكون في حال من التوتُّر لا يمكنني إخفاؤها. وهي تظنّ أنَّ سبب توتُّري هو الأوراق، فتعود إلى سؤالي عمَّا أريد أن أفعل، ولماذا أرفض التقدُّم بالطلبات اللّازمة للحصول عليها... إلى أن قالت لي ذات مساء إنَّها تعرَّفت إلى جمعيَّة جديدة تختصر الوقت؛ وقتَ انتظار القبول ـ أو الرفض ـ وتساعدني على الاستعاضة عن المستندات التي أضعتها في الطريق، أو سلبها منّي مشرَّدون، كما كنت أخبرتها. ثمَّ قالت، بابتسامة عريضة نَفَرَ عليها رسمُ شاربها: لقد حدَّثتهم عنك. و... جُنَّ جنوني. صار توتُّري غضبًا صافيًا على ربّ النهار الذي وضعها في طريقي. صرت أشتم وأزعق بالعربيَّة، وهي مستمرَّة في الابتسام، مع نظرة رؤوفة فيها بعضُ العتب... وخطرت لي في اللَّيل فكرةٌ: يجب أن أجعلها تُغرَم بي حتَّى لا تفكِّر في طردي؛ حتَّى تتعلّق هي بوجودي في بيتها. الغرام أقوى من الرأفة. ثمَّ، كي تكفّ عن انتظار حبيبها النصّاب، بحيث إذا خطرت له فكرة العودة لسرقتها من جديد، تقتلع هي الفكرة من رأسه وتحتفظ بي...

أيقظتُها، وقلت لها إنَّه ينبغي لي أوَّلًا أن أعتذر إليها، وثانيًا أن أقرّ وأعترف لها بالدافع الحقيقيّ إلى غضبي... وصرت أمثِّل أنّي مُحرَج جدًّا، ورحت أشرح لها أنّي، رغمًا عنّي، وقعتُ في حبّها... وأنّي، عندما أخبرتني بأنَّها ما زالت مُغرَمة بالرجل الذي تحتفظ بثيابه في الخزانة منتظرةً عودتَه، أدركتُ شدَّة تعلُّقي بها، وغيرتي عليها... أنا، الذي آوتني ولمّتني من الشارع، وعطفتْ عليّ وأنقذَتْني من الموت جوعًا وبردًا، تُخجلني عواطفي البلا أمل، والتي لو بحتُ لها بها فستبدو استغلالًا لقلبها الكبير، وهذا ما لا ترضى به الأخلاق، وخصوصًا عندنا نحن العرب، أضفت متباكيًا.

كانت ليلة رهيبة. اغتصبتني فيها تلك المرأة اغتصابًا صريحًا وهمجيًّا. كلَّما حاولت الابتعاد عنها قليلًا آملًا أن تعود إلى رشدها، ضاعفت هي قوَّة تمسُّكها بتلابيبي وهجومها الوحشيّ عليّ. صدَّقتْ ما مثّلتُه عليها وصارت تريد تخليصي من الإحراج والخجل. ارتمت عليّ، وراحت تقول إنَّها تشتهيني جدًّا، ومن زمان، وإنِّي أنسيتُها ذلك الرجل الذي ستُلقي بثيابه صباح اليوم التالي إلى الشارع. وهي سعيدة بمصارحتي لها لأنَّها انتظرت بحرقة، لكنَّها لم تَرَ منِّي أيَّ إشارة غواية أو شهوة أو غرام... تقول وتحكي وهي تفك أزراري وتنزع ثيابي الداخليَّة بالقوَّة لتأخذ عضوي في فمها وبين يديها.

يا إلهي. يا إلهي ماذا فعلتُ بنفسي. أيّ جحيم يوميّ ألقيت بنفسي في نيرانه، وسرتُ إليه برِجليّ. كلَّما تمنَّعتُ ازدادتْ إثارة وشبقًا، وازددتُ قرفًا وكرهًا لكلّ جسمها، الأبيضِ الأصفرِ، المترهِّلِ المجعَّد الشائب. كانت ابتسامتها الرؤوفة ذات الشارب، حركاتُ الغواية التي تخجل بها بنتُ العشرين، الملابسُ الداخليَّة الملوَّنة التي تشتريها خصّيصًا لي، خطوُها الراقص إذ تتمايل كـ «شرقيّة» على موسيقى رقص مصريَّة، دلالُها وغنجُها، هداياها، طبخُها، شموعُها؛ هذه المرأة التي أصبحت امرأة أخرى راحت تجعلني أفكِّر في الانتحار. تقريبًا في الانتحار.

قلت لها يومًا إن ما نفعله حرام عندنا. قالت إنَّها ستتزوَّجني، إذن، حالما أحصل على الأوراق. ثمَّ : لماذا لا نبدأ المعاملات للحصول على الأوراق...

عاودتني تلك الكوابيس.

أكون في مكان جميل بهيج، واسع وشديد الإضاءة، في حفلة أو ما يشبهها. تلحّ عليّ حاجة التبوُّل أو التغوّط. أبحث عن دورة المياه، وحالما

أفتح بابها تصير مكانًا واسعًا بعدَّة أبواب شبيهًا بالمستشفيات، وكلُّ شيء فيه أبيض. وحال أجد ركنًا لأقضي حاجتي يكون الباب مخلوعًا وجورة المرحاض فائضة بالغائط. ثمَّ أحاول في زاوية أخرى فأجدها أكثر تلوُّثًا. وشيئًا فشيئًا، يصبح كلّ ما تمسّه يدي، من زرّ الإضاءة إلى الحائط الذي أتَّكئ عليه، أو ما أخوض وأخبّص فيه أو يمسّ ملابسي، ملوَّثًا ومبقَّعًا بالخراء، بينما أنا لا أزال أبحث في دورات المياه المتكاثرة والمتلاصقة، وفي الممرَّات الكثيرة الضيِّقة، والملوَّثة هي أيضًا بالغائط، عن زاوية صغيرة بعيدًا عن أنظار الرجال والنساء العالقين مثلي هناك، أتخفّف فيها من ضغط أمعائي.

أصحو من النوم وأكشف الغطاء، أضيء نور المصباح الجانبيّ لأبحث بين الشراشف عن البُقَع الرَّطبة اللَّزجة. أخلع ثياب النوم وأفحصها جيِّدًا. أصبّن يدَيّ مرَّات عديدة ثمَّ أدعو الملائكة لتساعدني. أحضِّر كباية شاي وأقف خلف النافذة محدِّقًا في اللَّيل. أُطيل الوقوف خلف النافذة وأطيل التَّحديق في سواد اللَّيل كما لو كان مياهَ نهر كبير، مياهًا من حبر يسيل ويتدفَّق، حتَّى تهدأ أنفاسي. ولا أعود إلى النوم إلَّا إن استطعت البكاء من عذابي. البكاء حتَّى آخر التعب، وآخر الغضب. أمَّا إذا استفاقت المرأة، ونومها في العادة ثقيل جدًّا، فأردُّها عنِّي بقوَّة، فتتمتم: إنَّها ذكريات الحرب، سوف أنسّيك كلّ ألم، وتعود إلى الشخير براحة ضمير الأبرياء الطيِّبين...

صرت حين أستيقظ في الصباح أفتعل النوم حتَّى تخرج. وفي المساء حين تعود تجدني منكبًّا على الكتابة، أخربش أيّ كلام بالعربيَّة فأحرمها لمسيَ، قائلًا إنِّي أؤلِّف كتابًا عن الحرب. صار الكتاب الذي أؤلِّفه ذريعةً عظيمة، فأنا مشغول بالأفكار وبالذكريات والأسرار المَهُولة.

وتشلّني المشاهد العنيفة، التي تعاودني غصبًا عنّي، عن ممارسة الجنس، لا بل هي تجعلني بعيدًا تمامًا عن عالم الرغبات كلّها. هكذا أردّد لأُبعدها.

لم يدم الهناء طويلًا. صارت تكرّر أنَّ الكتابة عظيمة، لكنَّ الكلام هو الدواء، وينصح به علمُ نفس الصّدمة في علاج المصدومين. يجب أن أقول وأبوح وأتكلّم حتّى يرتفع عنّي هذا العذاب. يجب أن أكشف بَواطني، وأسمّي الألم والقلق كي أستريح. هكذا ظلّت المرأة ذاتُ الشارب تردّد، إلى أن أعلنتْ أنَّ الحبّ، والحبَّ وحده، وليس سواه، يشفي من كلّ الأمراض كعجائب القدّيسين. وهي ستحبّني بلا حدود... الحبّ، إذن. يا إلهي.

تسللتُ من البيت وذهبت أبحث عن الألبانيّ. رويتُ له، باختصار، ما حلّ بي من عيشي مع هذه المرأة، العجوز والبشعة. اتّهمني، وهو يضحك، بنكران الجميل، وبنسياني ليالي البرد والجوع والتشرُّد، وآلام الضرب المبرّح. قال إنَّ القمل والجرب أكلاني فعلامَ أتمنّع. أغمض عينيك وانكحْها، أَعمل خيالك وتهويماتك وأفلام الجنس. أنت تكفر بالنعمة، قال. قِسِ الأمور في رأسك يا رجل، وافعل ما تشاء، فأنا نصحتك.

عدتُ إليه مرّةً ثانية، قلت تعالَ نسرقْها، فأنا أعرف دواخل البيت وخباياه، ولن نجد جارورًا واحدًا مقفلًا، لا على مال ولا على مصاغٍ أو ذهب. لماذا، سألني؟ لا ينقصك شيء على ما يبدو لي، أم أنَّك تريد لها السُّوء انتقامًا. ثمَّ انتقامًا من ماذا؟ أنت مجنون، ماذا تستفيد؟ وهي طبعًا ستعرف أنَّك أنت السَّارق أو الشريك في السَّرقة بما أنَّك في الشقَّة كامل الوقت. ثمَّ، لِمَ أُودي بنفسي إلى التهلكة بينما أنتظر أوراق اللُّجوء؟ أنت مجنون. فكّ عنّي. لا تَعُدْ إليَّ. لا ترجعْ إلى هنا.

اشتريت زجاجة ويسكي وعدت. صرت أشرب كعطشانَ يعبّ من نبع. وصارت في المساء تصرخ عليَّ كولد صغير لأنّي خرجت ولأنّي أسكر. انتزعتْ منّي زجاجةَ الويسكي وأفرغت ما تبقّى منها في المجلى. ماذا ستفعل الآن، صارت تعوي. انظر كرشك كيف يكبر ويراكم الدهون، بدلًا من أن تقوم بالتمارين الرياضيّة ها أنت تعود إلى الكحول. هذا لا ينفع معي... خفتُ أن تطردني، فصرت أسترضيها بالرقص، أُريها أنّي ما زلت رشيقًا، وكي تضحك أيضًا.

أردّد في نفسي أنَّ هذه المرأة لا تعرفني بالمرّة. ولأنّها لا تخشاني صرت مقتنعًا بأنّي أفقد قوّتي وأنّه لم يعد فيَّ ما يخيف. على الأقلّ، ما زلت قادرًا على ابتلاع غضبي. لكنّ الخوف كان يعود إليَّ أحيانًا كالكريزة، كنوبة المصاب بداء الصرع. تغشى عينيّ وتخبط في كامل جسمي. أعود إلى خوفي الأوّل، مضافًا إليه الخوفُ الذي كنت أحقنه حقنًا في عيون من أقوم بتعذيبهم... كأنّي أجمع خوفي ممَّن عذّبوني إلى خوف مَن عذّبتهم. كأنّه خوف جسم واحد هائل الحجم. يسير ويلمّ كلّ ما في طُرُقه ويكبر ويتورّم.

والمرأة الأجنبيّة ذات الشارب تدفق عليّ حنوّها وغرامها. تشاركني في همّ الكتاب. تدعوني لأشاهد نشرات الأخبار لأنّي معنيّ بالتطوُّرات، تقول. وإذا لم أفعل تروح تلخّص لي فحوى النشرة من أجل الحقائق التي ستظهر في كتابي. وإذ يصبح لي كتاب من تأليفي تتغيَّر نظرة السُّلطات ويسهل من نَواحٍ عديدة حصولي على أوراق...

أمّي الحبيبة،

هو المساء ينزل على المدينة. صار زجاج بهو المطار يعكس الضوء كالمرايا ولم يقترب منّي أحد. أرى المعاطف مبلّلةً، يعني أنّها بدأت تمطر،

وخفّت حركة الداخلين والخارجين مع اقتراب اللّيل. ما زلت أفكّر في شراء تذكرة للسفر عائدًا. سأقول لهم إنّي لم أنجح في الحصول على إقامة، ولا أوراق ثبوتيّة معي. سيحقّقون ساعة، ساعتين أو أكثر، ثمّ يلقون بي في الطائرة...

أو أقول لهم إنّي مُخبر سرّيّ، وكنت أتبع المرأة التي شقّت رسالتها وهربت من دون أن أنجح في اللّحاق بها وإيقافِها. وها هي الرّسالة في يدي، وفي متابعتي لملفّها أعرف أنّها لم تعد إلى بلدها لأنّها... لأنّها قتلت زوجها لتلتقي حبيبها، أو عشيقها، فيأخذها الأخير معه إلى كندا، وهناك تختفي. لكنّ العشيق لم يأتِ، لذا غيّرت خطّتها وسافرت تبحث عن ملاذٍ في بلد آخر، ومع رجل آخر... كلّ هذا الكلام موجودةٌ براهينُه في الرّسالة... لذا يجب أن تتركوني أتبعها...

بلا أوراق لن يصدّقوني.

أو أعود إلى بيت المرأة. أعيد النّظر فيما تركتُه هناك، وأرى إن كان حبيبها السّابق قد عاد مثلًا، مستعملًا مفتاحَه الخاصّ. يجب أن أرجع إلى هناك لتغيير القفل. فاتني ذلك.

أو أنام هذه اللّيلة هنا. فلن أجد مخزنًا أشتري منه قفلًا جديدًا، أو عاملًا يغيّر القفل القديم الآن وقد دخل اللّيل..

ذلك بأنّي قتلتُ تلك المرأة. في لحظة رعب أصابتني واستبدّت فيّ، قتلتها.

كنت نائمًا قربها، وفجأة التصقتْ بي. وأنا بين النوم واليقظة أحسست ورأيت أنّ ديدانًا تدبّ على جلدي. أبعدتُ يدها كمن يكحط ديدان الجثث، لكنّها عادت إلى لمسي والضغط على أعضائي فاشتعل

رأسي خوفًا أو غضبًا، أو الاثنين معًا. دم أزرق مسموم نفض جسمي وغشي عينَيّ.

أنا الآن، لأنّي أروي ما حدث، أحاول أن أتذكّر. ليس بسبب أنّي أريد أن أجد أعذارًا لنفسي، فقد حدث أن قتلت بشرًا كثيرين قبلها. لم ينفع معي لا صراخُهم، ولا البكاءُ ولا التوسُّل، ولا غرغرةُ احتضارهم القريب على المشانق أو في صناديق التوابيت، حيث يتخبَّطون كأنْ لاقتلاع الرصاص من فجواته قبل الاستكانة إلى قَدَرهم. حتّى الرائحة لم تكن تزعجني وأجدها نتيجة طبيعيّة، بشكل من الأشكال، لفساد اللّحم. وكنت أنام ملء جفنيّ، لا أندم ولا أخاف أو أغضب. كان التعذيب ثمّ الموت إمّا من نصيبي وإمّا من نصيبهم، قضاءً وقدرًا لا مردّ لهما. أمّا عن الاستمتاع بأفعالي، تلك التي قد يحاسبني عليها الربُّ، فهي الدرب الطبيعيّ لمن يستيقظ فجرًا ليعود إلى ارتكاب ما ارتكبه في الأمس. المتعة ليست خِيارًا، والانتشاءُ بالقوّة والبأس وإحكامِ السيطرة على مصائر البشر ليس من الزوائد. أن ترى رجلًا كان ضابطًا أو أستاذًا جامعيًّا أو قاضيًا يقبّل رجليك باكيًا، ليس لزوم ما لا يلزم. فالدم يصعد ويفور في القلب مُثقَلًا بالمخدّرات الطبيعيّة، الشبيهة، من دون شكّ، بتلك التي تبعث لذّة المدمنين فيعودون إليها مكبّلي الأيدي. أن تقلب الأدوار والمصائر بيديك الاثنتين يعني أنّك تصبح القَدَر نفسه؛ ذلك الذي كنت تصلّي له كي يرأف بك... أنا لم أكن في مثل هذا الوضع. مصلحتي كانت في الحفاظ على تلك المرأة، ملجئي الوحيد. لا مصلحة لي في قتلها.

لم أعِ ما حدث سوى في الصباح. كانت ممدَّدة كالخشبة فاتحةً ذراعيها وساقيها. شعرها ككبّة شوك كبيرة، وعيناها مفتوحتان ناتئتان خارج

المحجرين، ولسانها الأزرق ممدود من فكّيها المفتوحين على أقصى ما يمكن. لا بدَّ من أنّي خنقتها، إذن، فحول رقبتها دوائرُ زرقاء، وتحت إليتيها بركةٌ من البول البارد. سحبتُ نتف ثياب النوم بصعوبة من أصابعها. غطّيت وجهها ثمَّ كامل جسمها بالشراشف. قمت إلى المطبخ، أعددتُ القهوة وجلست على الكرسيّ الصغير أفكّر: يا إلهي، كم هي بشعة، الآن. لقد حدث ما حدث وربَّما تكون بشاعتها السَّببَ في هذه المصيبة التي حلّت بي. أعني هي الآن ميّتة، لا تعي شيئًا، أمَّا أنا فحيّ، وعليَّ أن أجد مَخرجًا لما وجدت نفسي فيه. ليس الأمر بالسَّهل أبدًا. فالتخلُّص من الجثث لم يكن يومًا من اختصاصي. كان له فريق من المكلّفين لا أعرف شيئًا عن عملهم.

ثمَّ رحت أفكّر في أنَّ في إمكاني تركَها هكذا، حيث هي، والهربَ فورًا وبسرعة. لكن إلى أين؟ جارتها الجزائريَّة التي تسكن تحتها قد عادت من سفر العطلة، وهي، كما كانت رَوَتْ، الوحيدةُ التي تزورها وتتكلَّم معها، لأنَّها، أي الجزائريَّة، تحمل لها بين فترة وأخرى صحونًا وأطباقًا من الكسكسي، أو غيره من طبيخها. فماذا لو صعدت الجزائريَّة تطرق الباب، يومًا بعد يوم، لتلاحظ غيابَ جارتها وتقلق. كتبتُ على ورقة صغيرة: «جارتي العزيزة، أنا مسافرة لبضعة أيَّام. أراك عند عودتي». وألصقتُ الورقة على الباب من الخارج، وعدت إلى المطبخ. ماذا لو انتبهت الجزائريَّة إلى أنَّ الخطّ مختلف عن خطّ جارتها؟ لكن، ما الذي يؤكّد لي أنَّ هناك رسائلَ بين المرأتين، بحيث تعرف الواحدة خطّ الأخرى؟

أنا في ورطة ويلزمني الوقت. هذا كلّ ما يلزمني الآن، ولن تقضي عليّ تلك المرأة التي استعبدتني وسمَّمت أيَّامي. وجعلتني كلبًا لها لأنَّها ترأف بالكلاب الضَّالّة.

فتحتُ الراديو. زعقتْ مغنّيتُها المفضّلة بصوت حشرجة فظيع؛ تلك التي قالت عنها إنّها بدأت حياتها مومسًا في شوارع باريس. أطفأتُ الراديو بسرعة. الغفران سرٌّ ربّانيّ. غفروا للمومس. جعلوها نجمة كبيرة. أنا، مَن سيغفر لي؟ قلبك؟ قلب الأمّ؟ هاهاها...

هل تذكرين قصيدة «قلب الأمّ» حين كنتِ تُحفّظينني إيّاها استظهارًا؟ كيف صرتِ تقولين إنّ هذا الشاعر عبقريّ؟

ـ «أغرى امرؤٌ يومًا غلامًا جاهلًا بنقوده حتى ينالَ به الوطَرْ
قال ائتني بفؤاد أمّك يا فتًى ولك الدراهمُ والجواهر والدررْ
فمضى وأغرز خنجرًا في صدرها والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنّه من فرط سرعته هوى...» إلخ، إلخ.

تصوّري أنّ القلب تدحرج حين تعثّر الولد فصرخ القلب: «ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر؟!» وحين أدرك الولد فعلته وراح يغسل قلب أمّه بدموع الندم، وحاول أن يطعن بنفسه قلبَه تكفيرًا وليكون عبرةً، عاد قلب أمّه وصرخ فيه: كفّ يدك، هل تريد أن تذبح فؤاديَ مرّتين!

هذا يدعو إلى قهقهة عارمة تفتح الرئتين عن آخرهما، فتشفطان الهواء كالبالوعة. أحيانًا على الواحد أن يضحك بدلًا من أن يصفن ويكتئب.

أنا، في أيّ حال، ما زلت أحفظ هذا الشعر الرديء حتّى اليوم. لم أفهم لماذا أو بماذا «أغرى امرؤ» ذلك الغلامَ. وكيف يعلّمون الأولاد فصولًا مثل هذا الطعن الدامي وشقّ الصدر لاستخراج قلب... يتكلّم وهو يتدحرج. يا لطيف الطفْ... يعني أنّ ذلك ممكن لأيّ ولد، ولو في تقريب خياله من الحكاية، وأنّ قلب الأمّ سيسامحه حتمًا وسلفًا وغريزيًّا على هذه

الوحشيَّة التي هي، باختصار، غايةٌ في العنف... أو على هذا العنف الذي هو غاية في الوحشيَّة.

غاية في العنف، وفي الوحشيَّة أيضًا، أن تشوِّه جثَّةً، طبعًا. قلبُكِ، داخل صدركِ أو خارجه، لن يسامحني، ولو أنِّي كنت مضطرًّا. عيب وحرام. فكَّرتُ كثيرًا. أعرف، لكنّ للظروف أحكامًا، وفي حياتي كلِّها لم أفعل شيئًا مماثلًا إذ كنَّا نوكل إلى بعض المحكومين حملَ الجثث إلى الكميونات، وبعد ذلك لا أعرف ماذا يفعلون بها. كيف كان يمكن أن أُخفي الجثَّة، ولو لبعض الوقت، حتَّى أضمن وقتًا لهروبي؟ وأين أخفيها؟ فكَّرت في الخزائن، مستحيل، فهي متخشِّبة.مكتبة أهد

سيحاسبني ربِّي، وسأسأله ماذا كان في إمكاني؟ ماذا كان في إمكاني بعد أن رميتَني في الأتون؛ في أتون جهنّم، وبعد أن تخلَّيتَ عنِّي؟؟

سأعود غدًا لتغيير القفل، وأرجع سريعًا إلى هنا. رحمها اللّه، وكان في عوني.

و... أعتقد أنِّي سأفكِّر في أمر الاحتفاظ برسالتي هذه لأرسلها إليك، أو أسلِّمها إليك، أم عليَّ أن أتلفها لأنَّها اعترافات صريحة وتودي بي إلى المشنقة أو السجن المؤبَّد... سنرى غدًا.

سأضع صوت فيروز على خيارات هاتفي الخلويّ وأنام. سأحاول ألَّا أبكي من جمال صوتها وحنانه.

أمِّي الحبيبة، أينما كنتِ تُصبحي على خير.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

أخي الحبيب،

فكّرتُ في الكتابة إليك لأنّك عرفتَ ما تصفه بالحقيقة. معك حقّ، إلى حدّ ما، لكنّ الحقيقة الصافية هي غيرُ ما تعتقد. كلّ الناس لديهم أسرار، ويجب أن تساعدني لما فيه مصلحتنا نحن الاثنين. ليس لديَّ الكثيرُ من الوقت. نحن ننتظر هبوط طائرة، إذ تأخّرت التي ستعطيها مكانَها على أرض المطار. أنزلوا منها راكبًا بعد أن طارت في الجوّ. حوّلوا سيرها وأعادوها إلى أرض المطار. أنا أعرف لماذا أنزله الأمن مكبَّل اليدين، فمعي في جيبي رسالةٌ كتبها ذلك الرجل إلى أمّه، وحاول على الأرجح إخفاءها قبل أن يصلوا إليه. رسالة كهذه لا ينساها الواحد أو يتوه عنها. أنا وجدتها حينما كنت أعيد ترتيب المقاعد بعد أن أفرغوا الحقائب وأنزلوا جميع الركّاب من أجل تفتيش الطائرة. كانت أوراقها مكرمشة، مضغوطة وغائرة في جانب المقعد الملتصق بمعدن الجدار. حين رأيت سريعًا أنّها مكتوبة بالعربيّة دسستُها في جيب بنطالي. أعرف الآن لماذا لم يدقّقوا كثيرًا في تفتيش مقعده. ليس الرجل إرهابيًّا، لا حقائب معه ولا سلاح، وهو، بحسب ما قرأت، مجرَّد مجرم قتل امرأة أوته وأراد الهرب. إذن، هم يعرفون ما هي جريمته، وقد وجدوا جثّة القتيلة، ووصلوا إليه قبل أن يطير بعيدًا...

رهيب ما فعله هذا الرجل. لكنّي، لأنّي تأخّرت في تسليم الرّسالة إلى الشرطة، لم أعد أستطيع ذلك بعد الوقت الذي صرفته في قراءتها، إذ كيف أبرّر لهم احتفاظي بها. في أيّ حال، وبما أنّهم ألقوا القبض عليه، فلن تضيف اعترافاتُه في الرّسالة إلى تهمته تفاصيلَ تُفيدهم... ثمّ إنّ الرّسالة مكتوبة إلى أمّه. المسكينة أمّه؛ البائسة التي لا يعرف غيرُ اللّـه أراضيَها اليوم. إنّها اعترافات من ولد لأمّه، آخرِ شخص للإنسان في الحياة، مهما فعل ومهما فعلتْ. لم يتقبّل قلبي أن أسلّم الشرطةَ آخرَ كلماته واعترافاته الوحيدة. عدا خوفي، شعرتُ بالشفقة عليه. هذا غريب طبعًا لأنّه مجرم سفّاح. لكنّ كلّ إنسان في العالم فيه جانبٌ بريء حين يقف أمام أمّه. أمام أمّه يعود ولدًا؛ ذلك الولد الذي غادره من زمان وتركه في النسيان... سأفكّر فيما سأفعله بهذه الرّسالة فيما بعد...

الأمّ، آخر قلب للإنسان في الحياة. وأنا فقدتُ أمّي، كما فقدها رجل الرّسالة الذي سيمضي كلّ الأيّام المتبقية من حياته في السجن المؤبّد. سيبكي في اللّيل أمّه وحيدًا، بعيدًا وغريبًا. هذا أيضًا إنسان قضت عليه الأيّام، ولن يرحمه لا الناسُ ولا اللّـه.

ولأنّها أمُّنا، أيْ أمُّك أيضًا، ها أنا أكتب إليك يا أخي. والحقيقة أنّي أنا فقدتُها قبل أن تموت.

لا أدري ما الذي غيّرها إلى هذا الحدّ. باختصار، كلّ ما أرسله إليها من مال بات لا يكفي. تقول إنّ أمّ فلانة وأمّ علتانة صارتا من الأغنياء، والناس تعمّر بيوتًا وبنايات وتشتري أغراضًا بمئات الدولارات. حتّى صارت لا تكفّ عن الكلام على ارتفاع مصاريف البنت... البنت أكلت، والبنت طلبت، والبنت يلزمها... إلخ. حتّى قلت في نفسي إنّ أمّي لم تعد تريد

ابنتي معها. اتَّصلتُ بها بالتلفون، وقلت لها: أمّي حبيبتي، لقد تعبتِ معي كثيرًا وأنا لن أنسى جميلك ما حييت. أمهليني بعض الوقت وسآخذ البنت إلى عندي. غضبتْ وصارت تشتمني على التلفون، وتقول إنَّ صبرها قد نفد، وإنَّ كلامي الرقيق لا يحلّ المشكلة. قلت لها هل تريدين أن أشتغل مومسًا، فأقفلت الخطّ في وجهي. وبعدها، لم تعد تردّ عليَّ على التلفون.

صرت أتذكّر، من ألمي وقهري، أنَّ أمّي كانت سبب زواجي التَّعِس وأنا بعدُ لم أُتِمَّ الرابعة عشرة. وهي لم تغفر لي طلاقي، ولا أنتَ، بل كنتما سببَ هجرتي إلى هذا البلد وعملي خادمةً في بيوت الناس وفي تنظيف وسخ بشر لا أعرفهم، في حمّامات المطاعم وغرف الفنادق. كانت أمّي راضيةً، في تلك الأيّام، لأنّي ابتعدتُ عنها، أنا وفضيحةُ طلاقي، ولأنّي كنت أرسل إليها المال بانتظام. كان هذا المال كافيًا لتهتمّ بابنتي، لكنّ «فلانة وعلتانة» خرجتا عن البروتوكول، كما يقولون هنا. صرتُ أسمع برحلات البنات المتكرّرة إلى البلد. كيف تصل الواحدة محمَّلة بالهدايا ذات الماركات؛ كيف تعرض مصاغها هناك على الزوّار الكُثُر؛ كيف تستأجر سيَّارة وتعمّر بيتًا وتريح أباها من الشغل. ولا أحد يسأل نفسه من أين هذا كلُّه. بما أنَّ البنت محجَّبةٌ، وأحيانًا كثيرة منقَّبةٌ، فكيف لأحد أن يشكّك في أخلاقها...

راح كلام أمّي يدور في رأسي. ألم تقم ببيعي لزوجي في مقابل المهر الذي جهَّز وأراح رجال العائلة؟ لم أرَ فلسًا واحدًا. عدا ثمن تذكرة الطائرة لأختفي عن وجهها بعد طلاقي، لم أرَ فلسًا. كنت أحتمل كلّ المرارات من أجل أن ترضى عليّ وعلى ابنتي. ستّون مرحاضًا أنظّفها قبل العاشرة صباحًا وأنا أركض عشرات الكيلومترات في سباق مع ابتسامة مسؤولتي التي لا تبتسم... والآن؟ صرتُ أسأل نفسي...

بكيت بحرقة على حياتي وقرّرتُ أن أشتغل مومسًا؛ شرموطة وعاهرة. ما الفرق بين امتهان وآخر؟ وحده المال سيرفعني قليلًا عن روائح المراحيض وأوساخ الحضيض، بما أنَّ أمّي، أمّي التي هي أمّي، بدأت تضطهدني... كنتَ أنت قد أصبحت في السجن، وأنا احتفظتُ بعملي بنصف دوام في الفنادق كتغطية.

كان التعاطي مع الرجال الزبائن أسهل من مضاجعة زوجي. كانوا من الرقّة والتهذيب بحيث يمضون نصف الوقت في التحدُّث إليّ، ثمَّ في مداعبتي. وفوق استفاقتي على عالم المتعة واللّذّات التي لم أعرف لها طعمًا في السابق، كانوا يدفعون بسخاء. شَرطي الوحيد كان ألّا يأخذوني من الخلف، كما كان يفعل ذلك الجحش معي بالقوّة حتّى يُدميني. أعتقد أنّه كان مثليًّا ويُخفي ميوله حتّى عن نفسه... أعرف الآن ذلك لأنّي صرت امرأة.

كلّ ما كنتُ أسمعه عن عذاب نساء الشوارع لم أتعرَّض له. لا قوّاد ولا بيوت مشبوهة. كنت أنتقي زبائني من «ليل بعد الظهر»، أيْ من مراقص العجائز الذين يلتقون في العصر ويتفرّقون بداية اللّيل؛ بين حلوى الغداء وحساء العشاء في البيت. كلُّهم تقريبًا كانوا من المتقاعدين، ومنهم الأزواج الذين يضجرون كثيرًا في بيوتهم. أنا لا أقترب إلّا من الفرادى، ومن الرُّوّاد الجدد. لا يفهمون في البداية وجودي بينهم في عمري الشابّ، وأنا أجيب بأنّي لا أحبّ جيل اليوم وأنّي رومنطيقيّة. أؤدّي دور الشابّة البسيطة حدّ الهَبَل، فهم، في أعمارهم التي وصلوا إليها، يفضّلون هذا النوع. يرونه أيضًا في لباسي الذي أحرص على أن يكون من موضة قديمة، من الأيّام التي كانت تعجبهم فيها النساءُ وتذكّرهم بشبابهم. أنا ألهو معهم فعلًا لأنّهم يجدونني جميلة، وخصوصًا أنَّ الضوء

الأحمر الخافت في الداخل يُنقص العمر الحقيقيّ عشرَ سنوات أو أكثر. لذا يتفرّقون بسرعة بعد خروجهم إلى الضوء الطبيعيّ، حتّى في عتمة المساء، إذ تعود تلك السنوات القاسية إلى الوجوه مضافًا إليها التعبُ والتعرُّق وسيلان الماكياج والتصاق الشعر على الجمجمة. إلّا أنا. يبقون معي على الرصيف، ويفهمون، في وقت قصير، ما يلزم للاختلاء بالمعجبة الدلّوعة. أنتقي الرجل ناعم اليدين. مَن هذّب أظافره في الصالونات المختصّة، فهذا يشير إلى وضعه الماليّ أكثر من شياكة الثياب. صرت خبيرة أيضًا بأثمان الأحذية الرجّاليّة بمعزل عن جدّتها أو قِدَمها. ولشدّة سعادتهم بي، لم أخجل يومًا من قبض المال الذي يقدّمونه إليّ على أنّه هديّة... متواضعة. بل إنّي كنت أشعر فعلًا بأنّي، في وحدتهم، أقدّم إلى الواحد منهم خدمة، وأعيد إليه ثقته بسحر ذكورته... يجب أن تراهم كيف يشكرونني حتّى تصدّق. كنت معهم امرأة محترمة وكنت مقتنعة بذلك...

حتّى التقيتُ ذلك العربيّ في الفندق. عاد إلى غرفته بينما كنت لا أزال أنظّفها. بدأ يغازلني بألفاظ نابية، ردَدْتُ عليه بالعربيّة لعلّه يخجل فازداد وقاحة، ثمّ هجم عليّ. ضربني بقوّة قبل أن يغتصبني. استدعيت أمن الفندق ومدير شؤون الموظّفين، أريتهم البقع الحمراء وآثار الضرب وثيابي الممزّقة. سحبوني إلى الطابق الأرضيّ، ولمّا استمرَرْتُ في الصراخ قالوا: نحن نعلم بأنّك مومس، ونغضّ الطرف، فهي حياتك، لكن أن تفتعلي فضيحة من أجل ابتزاز هذا الثريّ لأنّه عربيّ ويخاف الفضائح، فهذا ما لا نسمح به. وطردوني.

هكذا انتقلتُ إلى عملي في المطار بعد أن تدخّل من أجلي جنتلمان من زبائني القدامى. كنت وضعت بعض المال جانبًا، وقرّرتُ،

بعد هذه الحادثة، أن أذهب وأُحضر ابنتي لتعيش معي، وأُقلع طبعًا عن لقاء الرجال.

أخي الحبيب،

اسمع جيِّدًا ما سوف أرويه لك.

سافرت إلى البلد محمَّلة بالهدايا، ومحجَّبة كما الأخرياتُ، بل بالأَسود من رأسي حتَّى أخمص قدميّ. وجدتُ أمِّي في السرير مريضةً، ولم أجد ابنتي.

قالت أمِّي: ابنتك هربت. لا أدري أين هي. أخذتني الجارة أمّ رشيد من يدي. أجلستني في دارها، وأفهمتني أنَّ أمِّي زوَّجت ابنتي بالقوَّة، وهي اليوم مع زوجها في الخليج. تحرَّينا كثيرًا أنا وأمّ رشيد، التي تعرف الشَّيخ الذي زوَّج ابنتي القاصر، وحصلتُ على اسم الرجل. ومن سفارة إلى قنصليَّة إلى قاضي الشرع، أعطوني العنوان. سافرتُ إليها ووجدتها. وجدتها تعمل خادمة ورقَّاصة في بيت هو أقرب إلى الماخور. تزوَّجها كما عشراتٌ غيرها. وحين قابلتُه فوجئت بأنَّه ترانس؛ أي لا رجل ولا امرأة. رجل متبرِّج كالنساء ويلبس ثيابهنّ. كهلٌ وسمين وخليع. شابَ شعري. قلت: ابنتي قاصر وسوف أرسلك إلى السجن. قال: خذيها، مشيرًا بيده الثخينة المليئة بالخواتم الكبيرة، وأمر الناس من حوله بجرّنا إلى الخارج.

عدت وابنتي إلى البلد من دون أن تكلِّمني مرَّةً واحدة أو تردّ على أسئلتي. رحتُ أسأل أمِّي لماذا باعت البنت وأنا أرسل إليها الكثير من المال. وفهمتُ من أمّ رشيد أنَّ محاميًا غريب الشكل كان يتردَّد على أمِّي ليخلِّص ابنها ـ أيْ أنتَ ـ من السِّجن. احتالوا عليها وأخذوا مالها... ماليَ كلَّه.

قلبتُ البيت ووجدت ذهبًا وفضَّة. وجدت صكّ ملكيَّة البيت وزوَّرت توقيعك وتوقيع أمِّي ورشوتُ مَن رشوتُ، وبعته. هل أنا مَن سَحب مصاغها وغوائشها من يديها ورقبتها وهي على فراش الموت؟ نعم أنا. هل تركتُها تموت وحدَها ولم أستدعِ حتَّى طبيب المستوصف المجّانيّ؟ نعم، صحيح. لكنْ ليس صحيحًا أنِّي خنقتها بوسادتها كما ألمحتَ إليَّ يومًا.

لم تنطق ابنتي بكلمة حتَّى بعد أن أعدتُها معي إلى هنا. قلت سأعالجها في أفضل المصحَّات. وكما تتخيَّل، كانت بقيَّة القصَّة. المرأة التي عملتُ في بيتها لازدياد حاجتي من أجل البنت، لم تكن تطيقني، بل لم تكن تطيق البشر. صفعتني مرَّة وسكتُّ. قالت إنِّي في غيابها تبوَّلتُ في حمَّامها لا في حمّام الخَدَم. كانت لذَّتُها إذلالَ الناس، حتَّى زوجِها. وربَّما زوجها أكثر من كلّ الناس، حتَّى إنِّي كنت أحيانًا أشفق عليه أكثر من شفقتي على نفسي. لا شيء يوقظ الكراهية مثل الفقر. وهو كان يكرهها، وقد أدَّيت له خدمة بتركي تلك المرأة تموت.

نعم، رأيتها حين وقعت مدمَّاةً في الحمّام، أُغمي عليها، قلت في نفسي، وتركتها. سرقت كلّ علب مصاغها وصندوق مجوهراتها، وسرقت مالًا كان في دُرج مكتب زوجها. خرجتُ وأقفلت الباب بمفتاحي. وكنت أنا مَن أعلم الشرطة باكتشافي الجثَّةَ بعد عودتي إلى الشقَّة، كأنِّي وصلت لتوّي. اتَّهَموا الزوج الذي كان مفلسًا ولا يعمل، ويشكو أمام الجميع سُوءَ طباعها وصعوبةَ الحياة معها. قالوا إنَّه افتعل السرقة، وقتلها كي يرثها. هدَّدوني، ثمَّ فتَّشوا بيتي بالكامل، لم يجدوا شيئًا، وصدَّقوا أنِّي بريئة. كنتُ أبكي بحرقة حقيقيَّة في التحقيق. أبكي من فزعي وعلى حياتي، فيعتقدون أنِّي أبكي لكوني متَّهَمةً بريئة.

أخي، أنا لم أقتل أمّي ولا تلك المرأةَ. تركتهما ربّما تموتان، وهذا مختلف. بل ربّما كانتا ماتتا في حال أنجدتهما أيضًا. لست قاتلة. هذه إرادةُ الخالق وهذا قضاؤه. لماذا لا أرضى بقضائه حين يعطف عليّ قليلًا، بين ضربة وأخرى؟ حين تُغمضُ قسوة الحياة عينَها قليلًا عنّي وتخفّف قصاصها.

أنا قتيلة أمّي وأيضًا ضحيّةُ تلك المرأة. هكذا أفكّر. أنا لم أعتدِ على أحد. أنا فقط رفعت يدي لردّ الصفعات. هذا ليس قتلًا.

لكنّي أشتاق أمّي كثيرًا، وأكلّمها في اللّيل وأبكي. لماذا يا أمّي، أقول، إن كانت الأمّ لا تحبّ ابنتها فمن سيحبُّها في هذا العالم. لماذا تغيَّرتِ هكذا بعد أن كبرتِ؟ ألم أكن مطيعة حتّى النهاية؟ لماذا صرتِ قاسية مع العمر؟ معي ومع ابنتي أيضًا... تلك التي تلقفتِها من بطني إلى قلبك. لماذا كرهتِني بعد طلاقي وأردتِ نسياني ومحويَ من حياتك. كنتِ تعرفين جيّدًا لماذا هربتُ من ذلك الرجل إلى حضنك ولماذا طلبتُ الطلاق. هل كنتِ أنت تحمّلته أكثرَ ممّا فعلتُ؟ لماذا هان عليك تشرُّدي وتمرُّغي في وحل الخدمة. عمّ كان عليّ أن أكفّر، عن أيّ ذنب؟

لا أستطيع أن أصدّق أنّ هذا كلّه سببُه المالُ، وجشعُك...

أقول في نفسي إنّ الرجل كاتبَ الرّسالة ما زال يأمل في لقاء أمّه وغفرانها بعد كلّ اعترافاته لها بتاريخ الإجرام الذي صنعته يداه. في رسالته، أعرف أن ليس له غيرها، وأنّه يقف بين يديها كمن يقف بين يدَيِ الخالق، راضيًا بقضائه، عاريًا من كلّ كذب... أتمنّى أن تسمعيني من الآخرة، وأن تغفري لي. أنا أمّ أيضًا وأعرف أنّك تحبينني، وأنّك أحببتني حين كنت طفلة... ثمّ قست عليك الدنيا. ومثلي، صار ما راكمتِه من المرارات يُثقل على قلبك.

هكذا تقرّر الحياة. هكذا ترسل عواصفها ونحن كالريشة في الريح.

الحياة أم الفقر؟ أشعر أحيانًا بأنَّ اللّـه خلق بعض البشر بلا لزوم. مخلوقات لا فائدة من عيشهم المضني ولا حاجة لأحد إليهم. هكذا، كما خلق الذباب المؤذيَ، والذي ينقل الأمراض ويبيض على الجثث. له في ذلك حكمة، بلا شكّ. ذباب، صراصيرُ وحشرات، مثل رجل الرّسالة المؤذي والكريه... ومثلي أيضًا.

كسرتني الخدمة. صرت خادمة لكلّ شيء ولأيّ شخص... لو كان هناك نشيد لخدّام الأرض لحفظته ولم أتوقّف عن ترداده. والآخرون، الذين خلقَنا اللّـهُ لخدمتهم، يستمتعون بقضم فاكهة الحياة بأسنان قوّيّة. لا نحسدهم. لا أمل لنا في أن نشبههم. لكنَّ الواحد منّا لا يستطيع ردَّ لعابه حين تسيل العصارة على ذقونهم... نحن، حين تُنصفنا الحياة، نصير خُدَّامًا مطيعين، ونشكر اللّـه على أنّنا نليق بخدمتهم.

أنظرُ إلى ابنتي أمامي. هي وحدها، وأنا وحدي. صرتُ أكثر غربة منذ صارت معي. تتفرّج على التلفزيون بعينين شاردتين. لا أعتقد أنّها بكماء. هي تريد فقط تعذيبي لأنّها تكرهني. تكرهني بسبب ما روته لها أمّي، عن أنّي تخلّيتُ عنها، ولا أرسل مالًا يكفيهما بينما أعيش أنا في البذخ... وأنّي أمشي في الحرام وأعمل مومسًا. لذا لفّت رأسها بالحجاب منذ وصلنا إلى هنا. لا شكّ في أنّها تحمّلني ذنب أنّي من جاء بها إلى هذه الدُّنيا التي تكره.

أقوم إلى المطبخ، أحضّر الشاي وأقف خلف النافذة أتفرّج على اللّيل. أتفرّج على ليل من هواء غريب لا بلاد له. ليل سميك من القطران اللّزج يلتصق بالجفون وباليدين. هذه ليست حياتي، لا أدري

كيف انزلقتُ فيها، ولا مَن دفعني دفعًا لأتسربل بمصيري هذا وأُقفل كلّ الأبواب ورائي.

أخي الحبيب،

ما زلت أخبّئ المسروقات في مكان خفيّ وأمين. حين تخرج من السجن يجب أن تتوقّف عن التشكيك فيَّ وإسماعي الكلامَ القاسي، فأنا الآن، قد قلت لك الحقيقةَ كاملةً. وينبغي لك أن تساعدني على تصريف المسروقات. سأعطيك حصّتك من البيت ومن كلّ ما نتوصّل إلى بيعه. يجب أن أعالج ابنتي، وسنتصرّف معًا كأخوين، فليس لي غيرك الآن، ووحدي لا أعرف كيف أتصرّف.

لن أرسل إليك رسالتي بالبريد طبعًا. سأجد طريقة أعطيك إيّاها، أو أدسّها لك في زيارتي التي أنوي القيام بها لسجنك بعد أيّام أو أسابيع قليلة، إن شاء اللّـه.

أو ربّما عليّ أن أصرف هذه الفكرة من رأسي لأنّها تعرّضني لخطر كبير.

إنّهم يدعوننا إلى الرجوع إلى الشغل.

سوف أرى، قبلاتي.

أبي الحبيب،

كان الكلام صعبًا دائمًا بيننا، وكنت أعتقد أنَّ الحبّ الذي أكنُّه لك كفيلٌ بحلّ عقدة لساني.

كنت أحلم بالجلوس قريبًا منك؛ بأخذ يديك بين يدَيّ، وإلقاءِ رأسي على كتفك، أحكي لك وتحكي لي. فقد تظلمنا الحياة وتزيدنا ابتعادًا، واحدنا عن الآخر. وأكثر ما أخشاه هو الندم والأسى على الفرص التي تضيع في الصمت وفي الإنكار، حين نرى أنَّ الأوان قد فات وصار لقاؤنا مستحيلًا. أَمَدّ اللّـه في عمرك.

أعرف كم تحبُّني، فأنا الابن الذي انتظرتَ طويلًا. وإن كنت أكتب إليك اليوم هذه الرّسالة فكي أقول إنَّك تعرفني حقَّ المعرفة، وإنَّ لا أسرار رهيبة بيننا حتَّى أكشفها لك هنا، بالكتابة إذ يتعذَّر البوح. يكفي أن أتأمَّل الصور الفوتوغرافيَّة الكثيرة؛ تلك التي كنَّا فيها قريبَين كأنَّي قطعة من جسدك؛ تلك التي تلاعبني فيها، أو تُطعمني، أو تحملني عاليًا، أو تنحني فوق سريري؛ وتلك حيث تُريني ضاحكًا وفخورًا لأمّك وأبيك، وحيث تحمل شنطتي في طريق المدرسة، وحيث نأكل البوظة وأنا أبكي لأنَّها ذابت وسالت حتَّى كوعي...

منذ علمت بمرضك، إن شاء اللّـه تَقُم منه بالسّلامة، وأنا أحلم في اللّيل بأنّي أحضنك، وأنّك إمّا في خطر، وإمّا تحتضر. أكون أنا في ضعف حجمي وتكون أنت صغيرَ الجسم، عاريًا ومنقبضًا كجنين، أو كعصفور كبير من دون ريش، وبحيث أغطّيك بالكامل حين أحتضنك منكبًّا فوقك كأنّي أَحُول بينك وبين خطر عظيم، مع علمي بأنّ مرضك غير خطير وأنّك تتحسّن باستمرار، إلّا أنّ هذه الكوابيس لم تذهب عنّي. وإن كنت لا أرويها لك فكي لا أزيد في قلقك، ولأنّي، طبعًا، لا أجد أنّه المدخل المناسب لنعيد الحديث عن «ضعف شخصيّتي» الذي صار ممجوجًا. ولأنّ الكلام، كلّما أوغل في التقطيع والموارية، صار أصعب وأعقد منالًا.

شجّعني على الكتابة إليك رسالةُ امرأة وحيدة، وحدانيّة ومستوحشة مثلي. رسالة كنت عثرتُ عليها من زمان في خزانتي الصغيرة في البار. فأنا هنا كنت أعمل آنذاك في بار وليس في مطعم. إنّها على الأرجح إحدى الفتيات اللواتي كنّ يعملن هنا، في التنظيف أو مجالسة الزبائن، وقد تكون دسّتها في خزانتي لإخفائها، فربّما هي ملاحَقة بسبب ما تتضمّنه الرّسالة. لكنّها بلا عنوان وبلا إمضاء، وفيها أيضًا أنّها أخفت وثيقة لأحد الناس، وقد يكون فيما أخفته إدانةٌ لها. الآن فات الأوان، وربّما كان ذلك خيرًا لها.

المهمّ... المهمّ أنّي أعدتُ قراءة تلك الرّسالة بعد أكثر من سنتين، قرأتها مرارًا. كأنّي أعرف تلك المرأة، أو كأنّي أراها تطلب المغفرة من شخص ما، ولا تجدها. ليس فقط بسبب أنّ رسالتها لن تصل، بل لتلك الحاجة إلى أن يستمع إلينا إنسان، ثمّ يقرّر أن يسامحنا مهما فعلنا. تأثّرتُ، وندمتُ على نسيانها في جيبي كأنّي فرّطتُ بأمانة غالية على الرّغم من معرفتي بأنّ فرصة إيصال الرّسالة كانت شبه معدومة؛ كأنّها خيانة بشكل ما، أو تخلٍّ... باختصار، ومن دون أمل كبير، مررتُ على البار وسألت إن

كان هناك مَن طلب رؤيتي، فقالوا لا، والحقيقة أنَّ كلّ العاملين هناك كانوا قد تغيَّروا. فالرِّسالة موجَّهة من امرأة إلى أخيها المسجون، وفيها تعترف له بما كانت أخفته عنه في حياتها، لأنَّها وحيدة في هذه الدُّنيا. هذه الرِّسالة، التي لم تصل، كأنَّها الصوت الذي لم يسمعه أحد منذ البداية. منذ ولدتْ هذه المرأةُ ضاع صوتها. شعرتُ، وأنا أقرأ الرِّسالة، بقرب قَدَر المرأة من قَدَري، وبتشابُهٍ أيضًا في مسارَيْ حياتينا. وتساءلتُ، كأنْ معها، عن جدوى أيِّ مقاومة إن كانت مرسومةً لنا أقدارُنا منذ اللَّحظة الأولى لخروج أجسادنا الصغيرة من بطون الأمَّهات. كأنَّني أستطيع استرجاع انزلاقي كتلةَ لحم بين يدَيِ القابلة، بكثير من الشفقة، مضافة إلى ألم الرئتين المجبَرتين على الهواء. كأنَّني أنحني الآن فوق ذلك الرضيع، أتمنَّى أن آخذه بين ذراعَيَّ وأهرب به...

أبي الحبيب،

لا أريد الاستغراق في أخبار عذاباتي وتفاصيلها، بل سأسارع إلى القول إنِّي، في مكان ما، شديدُ الفخر بك؛ بحبّك لنا، وبإرادة حمايتنا في الأوقات العصيبة، وباستعدادك الدائم لتقديم التضحيات من أجلنا، ومن أجل ما آمنتَ وتؤمن به. وأنا أحاول دومًا أن أتخيَّل نفسي في عمرك وزمنك، وأحتار إن كنت سأفعل ما فعلتَه في حياتك، ذلك بأنَّ هذا التَّمرين مستحيلٌ؛ مستحيلٌ تمامًا. فلا أحد يستطيع أن يضع نفسه مكان أحد، أقصد تمامًا مكان شخص آخر، عدا عن تفصيل مهمّ، وهو أنَّ جسمي الذي هو شكل روحي العميقة، هو غيرُ جسمك، وهو ما تعتبره خيانة لك. فأنا لا أستطيع أن أكون مقاتلًا لأنِّي غيرُ مقتنع قناعتَك، أو مؤمنٍ إيمانَك، بالقضايا التي صرفتَ عمرك في الدِّفاع عنها. أعني ليس السبب في أنَّني «خنثى»، كما تنعتني، فمن أمثالي مَن قاتل وقتل، وربَّما بشراسة أكبر، بل

لأنَّ القتل أو القتال ليس بالنِّسبة إليَّ طريقًا... وفي أيّ حال أنا غير قادر عليه.

كنتُ، حين أفلتَ جنسي الرجوليّ من يدي، ورأيتُ كيف غادرني جسم الطفل المحبوب إلى تلك الهشاشة وذلك الالتباس اللذين جعلاه بشعًا ومرذولًا وغيرَ محبوب، كنت آنذاك في أقصى حاجة إلى أن تحبَّني، أو تساعدني على فهم ما يجري؛ ما اعتبرتَه مرضًا وانتظرتَ أن أبرأ منه بدفعة من العمر، أو بجرعة من الزمن؛ مرضًا لم ترافقه الأوجاع، تلك التي تستدعي علاج الابن بأخذه إلى الطبيب مثلًا، أو إعطائه دواءً لتخفيف الألم. كان «مرضي» تقصيرًا، فسقًا، وفي النهاية قصاصًا رحتَ تبحث عن أسبابه؛ لعنة من السماء، باتولوجيا، أنزلها اللّـه فيك أنت عبري أنا.

كان ألمُك يؤلمني كثيرًا. وددتُ أن أختفي. تضرّعتُ كثيرًا إلى اللّـه ليشفيني. إن كان هو مَن أخطأ في خَلقي هكذا، فإلى مَن ألجأ لنجدتي؟ صرتُ أخاف منك، لا من السّلاح الذي تحمله، أو من ذلك الذي يحيطك به رجالك. أخاف من طقّة مفتاحك في الباب؛ من عريك خارجًا من الحمّام؛ من ضحكك العالي؛ من معابثتك الفجّة المؤلمة؛ من اضطهادك المقنَّع المريض لأمّي؛ من سطوتك علينا بداعي الدِّفاع عن الوطن من الأخطار... كلّما مررتَ علينا في البيت خفق دمي رعبًا وفرحًا. وكلّما غادرتنا إلى الحروب تنفَّستُ الصُّعداء، ورحت أبكي على موتك المحتمل في أوّل معركة...

لكنّي كبرت وكففتُ عن كوني لعنةً أو مرضًا. الآن، أنا من هو أنا. لأنَّ هناك من أحبَّني غيرك. عدت جميلًا ومرغوبًا، ورأيت اللّـه في حنوّه وسعة قلبه... ذلك الذي دفعتَه بيديك ليخرج من بيتك، مدَّعيًا أنَّ السَّبب

هو سيجارة حشيشة؟ بصقتَ في وجهه وحمَّلته انحرافي. كم كان عمري آنذاك؟ «الانحراف» هاجسك الذي صرتَ تراه في كلّ الناس، وفي كلّ ما يجري حولك. أنت الذي دافعت عن الضعيف والمنبوذ والمستغَلّ؛ أنت الذي قاتلت ضدّ الظلم، كما كنتَ تردِّد. كم قتلتَ من المنحرفين؟ كم قتلتَ من الخَوَنة قبل أن يخونوا.

أبي، شاهدتُ يومًا وثائقيًّا عن شعب كان يعيش في منطقة نائية في روسيا القيصريَّة، على حدود سيبيريا. كان خالقُهم وربُّهم طائرَ الغراب، ويسمُّونه «كوترا». الغريب في إلههم أنَّهم كانوا يتعاملون معه كواحد منهم. لا تكريم ولا إجلال أو عبادة. كانوا يلومونه ويسخرون من خليقته الناقصة. يقولون إنَّه غبيّ، إذ كان يمكن للكون أن يكون أجملَ، وللعيش أن يكون أسهلَ، وللحياة أن تكون أقلَّ قسوة. وعلى الرّغم من ذلك، فإنَّهم كانوا يعتبرونه ربّهم وخالقهم، ربَّما لأنَّه قريب منهم ويشبههم ويمكنهم انتقاده، فلا هو ينتقم ولا هو يحاسب أو يقاصص. حين وصل إليهم رجال القيصر، الكوزاك، على أحصنتهم المرعبة لضمّهم إلى أحضان الكنيسة الأورثوذكسيَّة، قَتَّلوا وأحرقوا وهدّوا، واستعملوا الفتيات والنساء مكان الأبقار وحيوانات الجرّ ـ إذ لم تكن موجودةً في تلك البلاد ـ واستعبدوا من تبقَّى و... بنوا كنيسة اللّه تحت رحمة القيصر العظيمة.

أبي، هل القيصر هو من يمثِّل إرادة الربّ على الأرض؟ أم تراه طير الغراب؟ هل حدث أن اخترنا يومًا؟

أبي، أنا لم أترك البلاد هربًا منك أو من الحروب، ولا من أجل أن أُكمل تعليمي وأُحسّن شروط مستقبلي... أو إلخ، إلخ. أنا هربت من القياصرة، ولحقت بالغراب الذي أحببتُ، والذي لم يكن قد تبقَّى لي

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

غيره. لا، لستُ ملاكًا، ولا شيطانًا، وقد أكون أقربَ إلى الثاني إن فسَّرنا ما نزل بي على أنَّه قصاص.

فبعد أن التحقتُ بحبيبي بفترة وجيزة، بدأت علامات المرض تظهر عليه. لم يعد في إمكانه العملُ. طرده صاحب بوتيك الثياب حيث كان يشتغل. انتقلنا من الشقّة الصغيرة إلى غرفة واحدة. ثمَّ انتقلتُ أنا من العمل في محلّ للسندويشات، لم يكن يدرّ عليّ شيئًا تقريبًا، إلى بارٍ في منطقة لليهود والمثليّين. لم أتردَّد في قبول بيع ساعات من ليلي لمن يعرض عليَّ علاقة عابرة. كنَّا في حاجة كبيرة إلى المال. لم أشعر بالعار من عملي مومسًا، لكنَّ العلاج لم يأتِ بنتائج. كان رفيقي وحبيبي يذوي بين يدَيّ ويزداد موتًا كلَّ يوم. كلّ اهتمامي بحاله لم يُجْدِ نفعًا.

كان عليّ، لمّا رفض الانتقال إلى المستشفى، أن أغسله، وأن أُطعمه، وأن أُخفِّف آلام بثور جلده وتقرُّحاته، وقد التصق بالعظم. كنت كراهبة متعبِّدة لجروحه الكثيرة، كلَّ ليل، كلَّ صباح. آخذه بين ذراعَيَّ كالطفل، أتأنَّى كثيرًا في مسح جسمه، الآخذِ في التضاؤل، بماء الورد. أغيِّر الضمادات بمربّعات شاش أتركها بلا لاصق. أغيِّر الشراشف وأغسلها. أَخفق في الخلّاط كلَّ ما يمكن خفقُه لأُطعمه قبل أن أنزل لأجفّف الشراشف في الماكينات العموميَّة وأشتري ما نحتاج إليه... حتَّى طلب منّي أن أكفّ. قال: اتركني. أنا أطلب منك ألَّا تلمسني فصاعدًا. صار يُبعد يدَيَّ عنه، ولم يعد يأكل.

صرتُ أعود مساءً ولا أصعد إلى الغرفة. أجلس على مقعد المتنزَّهين في الشارع حتَّى يهدّني النعاس. وذات فجر، أيقظني رجل الشرطة. قال بحنوّ ظاهر: ما بك يا بُنيّ؟ يا بُنيّ! قال شرطيّ البلديَّة، فبكيتُ وقمت أمشي.

تركتُه يموت وحيدًا. هذه حقيقة مهما قلَّبتُها في جُمَل. مهما قلت إنّي إنَّما أذعنت لطلبه، بل لأوامره. مهما قلتُ إنَّ من حقِّه أن يرفض أن أراه هكذا بَشِعًا ومقرفًا. تركته يموت وحيدًا. قلت، في نفسي، إنَّه حين سيموت لن يكون في حاجة إلى أحد. سينطفئ من ضعفه انطفاءً. لن يحتاج إليَّ، لن يحتاج إلى أحد. إنَّه يموت من زمان. وأنا يجب أن أنساه وإلَّا فسأموت معه.

اعتدت على الشارع. صارت ملامسة أجساد أخرى عزاءً أبحث أنا عنه؛ عن أجساد تنضح صحَّةً، وعن جلد لا ينزّ ولا يتألَّم إلَّا متأوِّهًا من اللذَّة.

صار تعلُّقي بالبُرص والمجذومين، أعني بمرضى الوحدة والوحشة، حبًّا ومعاشرة. وهم كثيرون، هؤلاء الذين قذفتهم الحياة بالقوَّة إلى هوامش العزلة، وسوّرتهم بالنفي الإلزامي في حظيرة اللَّامرئيّين. لا يرون أحدًا، ولا أحد يراهم. أيّ تسرُّب إلى ما وراء السُّور ينتهي بكارثة التنافر العنيف، كما يحدث بين مادَّتين لا تملكان ولو جزئيَّةً من قابليَّة مغناطيسيَّة. عالمان منقطعان تمامًا، ولغات بشيفرات لا حلّ لقراءتها ولا في أيّ اتِّجاه.

كنَّا ندور في الشوارع، نسرق حينًا ونتسوَّل أحيانًا كثيرة، وأنا أنسى، أضحك كثيرًا وأتسلّى. وفي اللَّيل، أذهب معهم إلى حيث يسكرون وينامون، في زوايا الطرقات، تحت الجسور أو في مراكز استقبال حين يشتدّ البرد. وفي الفحوصات التي أجروها لي هناك، تبيَّن أنّي لست مصابًا، ففرحت.

كان هناك، من بين أصحابي، شابٌّ يأتي بين وقت وآخر، يكرز فينا. لكنَّه لم يكن ثقيل الدم كالخوارنة، وكان يضحك معنا، ولا يتشدَّق بالنار وجهنّم وما شابههما. قال إنَّه «إنجيليّ»، أي بلا كنيسة، يقرأ الإنجيل ويتعلَّم

من حياة يسوع الناصريّ. لم نطرده لأنّه، إلى جانب القصص المسلّية، كانت له وساطاتٌ مع الجمعيّات ويأتينا بما نحتاج إليه. ثمّ أخذَنا، أنا وبضعة شباب، إلى خارج المدينة، إلى مركز جميل للمهاجرين. كان كأنّه فندق صغير. هناك، قال لي الطبيب إن عيني ستنطفئ تمامًا، وعلينا أن نهتمّ بسرعة بالأخرى حتّى لا أفقد الاثنتين. قال إنّه ليس ذنبي، فهي بكتيريا تنتقل من خلال نوعٍ من البقّ، تعشش وتبيض في العين. حزنت كثيرًا، لكن ما العمل. حزنتُ وغضبت. ثمّ رحت أَمل الاحتفاظ بعيني السليمة وأفعل كلّ ما يأمرني به الطبيب الذي يزورنا كلّ أسبوع.

سألتُ الإنجيليّ، إذ كنّا نجتمع مساءً ليحدّثنا عن قصص المسيح، سألته: لماذا نادى الشعب، كلُّ الشعب، بباراباس حين سألهم بيلاطس: مَن أُطلقُ لكم في الفصح: يسوع الناصريّ، أم اللّصّ قاطع الطُّرق باراباس؟ لماذا؟ كانت إجابتُه مضحكة، فضحكنا: الشعب ليس دائمًا محقًّا، صار يقول. أجبتُه بأنه يخادع. فالسؤال هو لماذا «صوّت» الشعب ضدّ يسوع؟ ما مصلحتُه؟ ما دافعُه؟ قال أحدُنا إنّ يسوع كان يعرف، وهو الذي اختار أن يذهب إلى الصّلب. لماذا؟ سأله آخر، فقال: هكذا. قال الإنجيليّ: كي يفتدينا، يموت عنّا. ولمّا قلنا له إنّنا ما زلنا نموت، وبأبشع الطرائق، ومن دون أن نرتكب إثمًا، ولمّا عدنا إلى الضحك والفوضى، صفن قليلًا ثمّ قال: هذا رمز، الإنجيل رموز. هل تعرفون لماذا مشى المسيح على وجه الماء؟ قلنا: لا، لا نعرف. قال: كي نحاول المستحيل.

أعجبتني فكرة المشي على الماء. أنظر إلى أفراد المجموعة، وكلُّهم من الناجين الذين تمّ انتشالهم من البحر، وفقدوا أصدقاءهم وأهلهم في القوارب الغارقة. ربّما كان عليهم أن يحاولوا المشي على الماء. هذا نقص

في إيمانهم أو في تربيتهم. لو كنّا من المؤمنين لَمَشينا، بلا القوارب وأخطارها وتكلفتها. أنا كنت انتعلت صبّاطًا مريحًا ومشيت، على وجه الماء، إلى أوروبا، وربّما إلى أبعد... هههه؛ أو جرّبتُ السكيت بورد لأنّه أسرع من المشي... وربّما توقّفتُ قليلًا من أجل بيكنيك لطيف على وجه الماء، تليه قيلولة تعزّز طاقتي على التزحلق...

ثمّ، لماذا لا تقع أبدا قطعة القماش التي تغطّي أسفلَ بطن المصلوب؟ سألته لأتسلّى. كان المصلوب آنذاك عاريًا تمامًا لإذلاله. قلت: المصلوب يكون عاريًا تمامًا، إذ الهدف هو إذلالُه وكشف عورته، لماذا غطّوه؟ جميل أن تراعي صُوَرُ الكنائس وتماثيلُها مشاعرَ المصلّين والمؤمنين. فالمؤمن خجول، في طبعه، ويحبّ التركيز. لكن نحن الآن يعرُّوننا لأتفه إجراء: يلّلا، اخلعوا ثيابكم. يلّلا، كلّ الثياب. والكلاسين؟ نعم. كأنّ عضو الواحد، أو باب بدنه إن تفحّصوه، يكشف أسرارًا. في أيّ حال، لا أحد يخجل من عري أعضائنا، لا هم ولا نحن.

عاد الإنجيليّ إلى الرموز، مرتبكًا بين الجِدّ والمزاح. وانتهى الأمر بأن طردْناه من حلقتنا لأنّ روح الدعابة لديه ضعيفة. فوسّعتُ أنا دائرة معارفي، وصار يُعجبني أن أسمع لغات لا أعرفها، يتحدّث واحدهم إليّ بها وأنا أهزّ رأسي متبسّمًا، ولا أفهم شيئًا...

كانوا، لسبب ما، يتكلّمون معي كثيرًا وطويلًا؛ ربّما لأنّهم كانوا يعرفون أنّي لا أفهم لغاتهم. يتكلّمون إليّ من دون أن ينظروا ناحيتي؛ إذ مَن كان يريدني أن أسمع كان ينظر في وجهي ويتكلّم بالإنكليزيّة، أو ربّما اعتقدوا أنّي مجنون ولو قليلًا، بسبب شكل وجهي لأنّي أعور. لذا، كانوا يبكون أمامي في اللّيل، أو يستحمُّون عراةً ولا يخجلون منّي.

ثمَّ فجأة، خرجنا ذات صباح للتريُّض الإلزاميّ، فوجدنا الحقل الذي يمتدّ أمامنا مليئًا بالخيام الصغيرة الملوَّنة كأنَّها زهورٌ نبتت في الحشيش. ثمَّ أتت الحافلاتُ محمَّلة بالناس، مع النساء والأطفال، أنزلوهم في المساحة المسوَّرة بالشريط الشائك. والتفَّتْ حول المكان أفواجٌ من رجال شرطة راحوا يكلِّمون الناس بمكبِّرات الصوت ومن خلف دروع بلاستيكيَّة، ويُلقون إليهم بزجاجات الماء وصُرر الثياب. واصطفَّتْ، في جانب من الحقل، كميوناتُ التلفزيون... شعرت بالدُّوار، وقلت: فسُدت القعدة، ومشيت.

أكتب كلّ هذا يا أبي لأقول لك إنّي أصوِّت مثلَ غيري مع بارابّاس، ضميرِ الشعب، وأعترف نهائيًّا ببأس القيصر. فأنا الآن مشرَّد، مريض وأعور. ليس معي نقودٌ، ولا عندي مكانٌ أنام فيه. تعبتُ، وأريد العودة إلى البيت.

ما زالت أوراقي الثبوتيَّة معي. إن قبلتَ، أرسلْ إليَّ ثمن التذكرة ـ أو برقيَّة ـ إلى مركز بريد المطار، من حيث سأرسل رسالتي هذه. فأنا سأنتظر ردَّك هناك...

أرجو ألَّا تتأخَّرَ في الردّ. سلام.

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

ـ ٢ ـ

في المطار

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ذهبت كالمجنونة إلى المطار على أمل أن ألقاه هناك.

قال لي الرجل، الذي كنّا التيقناه يومًا وسخرنا من شاربيه، إنّه رآه للتوّ يستقلّ سيارة تاكسي ومعه حقيبةٌ كبيرة.

شكّكتُ في أن يكون قريبًا له فعلًا، على ما قدّم نفسه إليّ بلطف مُبالغ فيه. قال إنّه يشقّ عليه وضعي إذ كان يراني أمرّ في الشارع وأطيل النّظر إلى النافذة... في أيّ حال، فكّرتُ في أن لا مجال، لحظتها، للتدقيق في الأمر، وندهت بسرعة على سيّارة تاكسي. ذهبت مباشرة إلى الباب الذي تتوجّه منه الطائرات إلى بلده. انتظرت ساعات كالبلهاء...

كيف كان ممكنًا أن أجده؟ كيف صدّقتُ ذلك النصّاب؟ ماذا كان يريد منّي بكذبه هذا؟

هذه شعوب غريبة. رجالُها معقّدون؛ مرضى.

كنت أمرّ في شارع بيته أكثر من مرّة في الأسبوع. أجد أحيانًا الغرفة مضاءةً، فأنتظر في المقهى المقابل، مع المومسات والقوّادين، أن ينزل لشراء حاجة ما أو للتنزُّه، وأن أفتعل صُدفةً ما...

وأراقب أحيانًا الستارة بحثًا عن ظلّ امرأة من عشيقاته الكثيرات. كان دافعي العميقُ الاقتصاصَ منه؛ الانتقامَ. لكنّي كنت أبحث عن

غرض قسوتي، عن سلوك لانتقامي يكون مؤلمًا جدًّا له؛ يحفر في حياته فلا ينساه.

لم أَشفِ غليلي. كانت نافذته في الأسابيع الأخيرة، مطفأةً باستمرار. سألتُ جارته المومس السمينة التي كنت أفترض أنَّه يعاشرها، فقالت إنَّها لم تَرَه منذ مدَّة.

كان هذا الرجل مؤذيًا، في طبعه، مُعدَمًا ومتعجرفًا ومتشاوفًا؛ متخلِّفًا ومدَّعيًا؛ عنيفًا وسريعَ البكاء. حالما حسب أنَّه أوقعني في غرامه، أو في سريره، بدأ تعذيبَه لي؛ تعذيبًا مبرمجًا ومنهجيًّا. كان يسعى، على الأرجح، لأن أتعلَّق به أكثرَ، بمنطقه المريض...

انتهى الأمر بأن كرهته وكرهت عُقَدَه الكثيرة؛ تلك التي يبدو أنَّه قد حملها من طفولته البائسة في بلده المعتلّ. وحدتُه، التي كانت تستدعي حنوّي، صارت هاجسًا عنيدًا ينخر رأسي. لم أعرف له صديقًا واحدًا؛ قريبًا واحدًا؛ أو عشيقة واحدة تمكث معه أكثر من أسبوع.

مزيج من الحقد والشفقة استحال ذلك الغرام الذي دمَّر سنوات من حياتي. ثمَّ اختفت الشفقة.

صار الانتقام منه هدفًا، لأعود إلى الحياة التي أوقفني عنها؛ كي أعود إلى الرجال؛ إلى الحبّ وإلى الجنس. فأنا أشعر بأنَّه أفرغني من عصارة روحي، وأنّي لا يمكن أن أعود جميلة ثانية، أو شهيَّة لأحد. كيف كان ذلك الرجل يشتهيني كالمجنون ثمَّ يتخلَّى عنّي في المساء نفسه. كنت أقول إنَّه، من شدَّة حبّه لي، يريد أن يختبرني؛ أن يجعلني أيّوبَه، كما فعل الربّ بأيّوب من شدَّة حبّه إيَّاه. اختاره مكافأة له على الخير الذي في قلبه. قال الربّ لأيُّوب أنت الذي تستأهل ما سأفعله بك. سأصطفيك

من دون سائر البشر لأخصّك بعذاب لا حدود له... وستكون حرًّا، غيرَ ملزم برهاني على حبّك لي، وسأترك لك خِيار الخسارة. لكنَّ الحكاية لا تكتمل إلَّا بفوزي بالرهان. حكمة الأمثال والحكايا والقصص...

اصطفاني لتعذيبي. النساء اللواتي عاشرهنَّ تركهنّ يذهبن بسلام، وبشيء من الدعة والامتنان، إلَّا أنا... إلَّا أنا. كان، كأنَّ عليه أن يستعيدني، محكومًا باسترجاعي من حيث أكون نجحت في الهرب، إن كنت نجحت. يستفقدني بإلحاح ثمَّ يسترجعني ليرميَني إلى أبعد.

ما يقهرني الآن هو هَبَلي. لماذا كنت أعود إليه، وكيف كان يجرّني الوعدُ بأن يحتفظ بي؛ بأن يكافئني على قوَّة احتمالي وعلى قدرتي على إخفاء تقرُّحات قلبي، وعلى عدم تحميله ذنبَ علَّتي، مرضي. حتَّى أصبحت مريضة مثله به. كان ذلك أقوى من الاحتمال. صار الطريق إليه بشعًا بما يكفي حتَّى لم أعد أريد الوصول. لم أعد أريد غرامه. لم أعد أريد نبوَّة أيُّوب. صرت أريد تقرُّحاتي أقعد بها، لا الشفاءَ منها.

لكنّي لم أتمسَّك بغرامه ذلك، ولا هو كافأني بالشفاء حتَّى أرفضه...

اختفى. كنت أعتقد أنَّ الحبّ يكشف الأقنعة، وأنَّه الحقيقة كما علَّموني في أقوال المسيح... أشعر الآن بأنَّ قناعًا هائلًا يغطّي جسد العالم بأسره؛ بأنَّ العالم ليس سوى تراكم آلاف مؤلَّفة من الأقنعة، وأنّي عمياء.

أجلس على مقعد جانبيّ لأُخفي دموعي عن الناس. أكاد أصرخ فيهم: ما الأمر؟ ما الغريب في بكائي؟ أليست المطارات أمكنةً للوداع؟ والدموع؟!

أتمخَّط، وآخذ نَفَسًا عميقًا. لو لم يمت أبي لكنت ذهبت إليه. فأبي هو الرجل الوحيد الذي كان في إمكاني أن أسأله:

أين اختفى ذلك الرجل؟ كيف تركني من دون كلمة؟

ما الذي كان يريده منّي؟

ما الذي كان يريده؟

أبي، ساعدْني. هل وحدته ووحشته كانتا من صنع يَدَيّ؟ ما الذي لم أحاوله من أجله؟ لماذا تعلّق قلبي به إلى هذا الحدّ؟ صرت، وأنا وحيدة وهو بعيد، أشعر فجأة بقرب رأسه من رأسي في الباص مثلًا، فتأخذني قشعريرة تنتهي بالبكاء. لماذا؟ لماذا كنت ألحق بأيّ رجل يشبهه من الخلف، أسير وراءه ساعات، وأنا أعرف أنّه ليس هو؟ هل أحبَبْني يومًا؟ لحظةً؟ في المقهى، في الشارع، في سريره؟ هل أشبه امرأة أحبّها وكان يراها فيّ؟ هل أشبه أمّه التي أخال أنّه يكرهها عميقًا فلا يسمح حتّى بالسُّؤال عن أيّ شيء يمتّ إليها بصلة؟

ألا يكون اختفاؤه قسريًّا مثلًا؟ هل كان له أعداء لم أعرف بوجودهم؟ أستبعد أن يكون قد عاد إلى بلده من دون أن يأتي على ذكر ذلك ولا مرّة واحدة، ولو من قبيل الاحتمال البعيد، وخصوصًا بعد أن استرجع جواز سفره. أعتقد ذلك. فنحن في نهاية الأمر بقينا صديقين، أو...

هل استعاد جواز سفره؟ لست متأكّدة، فهو كثيرًا ما كذب عليّ؛ كثيرًا جدًّا ما كان يكذب عليّ. أمشي بين فصول كذبه كمن يسير بين نقاط الماء والسماء تمطر. أنسى بين كذبة وأخرى أن أتحقّق ولو قليلًا ممّا يقول. تدركني الكذبة قبل أن أبتلع سابقتها، حتّى يصل الأمر بي إلى إقناع نفسي بأنّ الجهد الكبير الذي يقوم به لبناء عمارات من الكذب وهندستها هو دليلٌ على حبّه لي؛ حبّ الضعفاء الخائبين الفاشلين.

أعود إلى هاجسي وأفكّر كيف كان يدجّنني كما تُدجّن الدببة أو حيوانات السيرك. وأقبل. أقبل حتّى من دون حبّة السكر. ثمّ يُطلقني في سباقات الحواجز. كلّما قفزت فوق حاجز أضاف العشرات. وأقبل. أقبل حتّى من دون ميداليّة من التنك. ربّما اعتقد في رأسه المريض أنّها متعتي. نوع من المازوشيّة السّعيدة... وربّما كان على صواب وقد رأى فيّ ما أجهله عن نفسي. وإلّا فلماذا قبلت؟

كأنّي فتحت فخذَيّ وقلبي للريح؛ لشبح، لأشباح رجل، كلّما أطال النّظر إليّ استحلتُ شفّافةً وغبتُ عن عينيه. كلّما ضاجعني أكلني كفاكهة شهيّة، ثمّ رماني مثل النواة، كبقايا فاسدة، مسمومة. ما الذي أحبّه فيّ، وما الذي كرهه؟ هل كان يخاف منّي؟ هل كانت له أسرارٌ خطيرة؟؟

هل ذهب إلى امرأة أخرى، أحبّته أكثرَ منّي؟ ولماذا يُخفيها، وهو يعرف أنّي لم أكن لأمانع؟ كيف أمانع، وبأيّ حقّ؟ فهو لطالما أفهمني أن لا حقوق لي عنده، وأنا قبلت. ارتضيت بمهانات أكثرَ إيلامًا. كنت أريد طمأنته. صرت من أجله امرأةً أخرى. ارتضيت ما لا ترتضيه امرأةٌ من بلده. ربّما كان العكس مطلوبًا. ربّما كان المطلوب ألّا أشبههنّ. لا أدري. لم أعد أعرف شيئًا.

لم أعد أعرف سوى حقدي العارم؛ سوى عنف رغبتي في الانتقام، حدّ القتل؛ قتله بيديّ.

عليّ أن أعود وأبحث عن ذلك الرجل ذي الشاربين. لكنْ، حتّى لو عثرتُ عليه، فلن أصدّق كلمة واحدة ممّا قد يقوله لي.

كيف تركني هكذا؟ كيف تركني؟

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

وصلتُ إلى المطار بعد ساعات طويلة من التأخير. أكثر من عشر ساعات تلتها ستٌّ في الطائرة قبل أن تقلع.

كنت مجهَدًا إلى درجة لا توصف. يبعد الفندق نحو مئة كيلومتر. هذا يعني ساعة في التاكسي لو افترضنا أنَّ لا زحمة في الطرقات. وبما أنَّها تمطر فالسير سيكون بطيئًا في كلّ الأحوال.

لم تصل بعدُ حقيبتي إلى سجَّادة الحقائب. ليس مستبعَدًا أن تكون قد ضاعت. وسيتطلَّب الأمر أيَّامًا للعثور عليها، وربَّما يجدونها بعد عودتي إلى كندا. يضيف تأخّر الشنطة تعبًا إلى تعبي، ويحوّله إلى غضب ومرارة.

لماذا لم أحمل حقيبة أصغر حجمًا، من النوع الذي يوضع فوق المقعد، كما أفعل دائمًا. هل كنت أتصوَّر أن أبقى أسبوعًا، أو أكثر مثلًا؟ غريب كيف ينطفئ المنطق في العقل أحيانًا!

ماذا أفعل الآن؟ يطلب الموظَّف منّي مَلْءَ قسيمة في مكتب الحقائب، أو الانتظارَ؛ انتظارَ العثور عليها هنا داخل منطقة الفرز والتوزيع، ويُطيل الشرح عن حال الفوضى في كلّ المطارات بسبب العواصف. أنا ضائع تمامًا، ومنهَك إلى آخر درجة وقد توقَّف رأسي عن العمل.

جلستُ في مقعد الانتظار وقد أعدت العربة الصغيرة إلى مكانها. الحزام الكهربائيّ لسجّادة الحقائب توقّف تمامًا عن الدوران. ثمَّ بدأ مسافرون من وجهات أخرى التجمُّع حوله.

تذكّرت أنَّ أدويتي في الجَيب الخارجيّ للحقيبة. أخذت ما أحتاج إليه في الرحلة، وتركت الباقي في الجَيب. لماذا فعلت ذلك؟ فالأدوية خفيفة، ويمكن وضعها في حقيبة اليد مع التذاكر.

لماذا... لماذا؟

لماذا أنا هنا؟ وما الذي أخرجني من بيتي في ليل العواصف؟ لمجرّد دعابة؟ مزحة؟ لأرى امرأة عرفتها حين كانت فتاة يافعة؟ الفضول القاتل؟ أم هو نوع من اختبار سحري الرجّاليّ القديم؟ حين كنت لا أزال يافعًا وجميلًا؟ ثمَّ، لمَ لا، قلت لنفسي، أذهب وأرى. لا أريد أن أستسلم لروتين حياتي. هكذا نقرأ في الكتب الجميلة النهايات، وهكذا يغوينا ما نرى في الأفلام مهما كنّا علميّين. تترك صورُ الأفلام ما تتركه في الدم بعضُ السموم التي تترسَّب ولا تكشفها المختبرات...

«لمَ لا»، لفظٌ فظيع، يمكن أن يودي بك إلى التهلكة لأنَّه لَعِب. وفي اللَّعِب قد تخسر. الأمر لا يناسبني أنا. لم يعد يناسبني. كأنَّ وهم المغامرة يمكن استرجاعه بعد انقضاء زمنه. فأنا حدث أن درتُ نصفَ العالم. توقّفت في العشرين عن الدراسة عامًا كاملًا، ومشيت في أصقاع الأرض. هكذا التقيت تلك الفتاة الجميلة، أذكر عنها أشياء ممتعة لكنَّها ربَّما كانت متعتي في شبابي آنذاك. وربَّما أكون قد أُغرمتُ بها، كما يحدث كثيرًا في عمرنا ذاك. في أيِّ حال، لم تظلمني الحياة وأخذتُ نصيبي. تزوَّجتُ المرأة التي كنت أحلم بلقائها، وتفوّقت في دراستي وفي عملي. فماذا أريد الآن، ومفاصلي لا تحتمل السَّير أكثر من لفَّة الشارع، كما تقول

ابنتي متهكّمةً. هل هو ضِيقي من تقدُّمي في العمر؟ هل ينزل هذا الضِّيق فجأة من لامكان؟

أم، هل انقلبت حماستي كلُّها مرَّةً واحدة لأنَّ شنطتي تأخَّرت؟ أو ضاعت؟

أم إنَّ رومنطيقيتي البلهاءَ، والتي ضربت رأسي، لم تحتمل تعب السفر، حين لا نعود لا في الكتب ولا في الأفلام. منذ عشرات السنين، لم أقرأ كتبًا من هذا النوع ولم أشاهد أفلاما عاطفيَّة. إلامَ ردَّتني تلك المرأة، الفتاة القديمة؟ إلى أيّ فخّ؟ نسقط في الواقعيَّة الراشدة حين ننزل عن الكنبة ونفتح الباب. الكنبة التي صارتْ أجسادُنا المتعَبةُ تتعرَّفُ بسرعة وسعادة إلى التكوُّر الخفيف الذي صنعته تلك الأجساد عليها. والباب الذي نغلقه وراءنا حين نعود إلى البيت كأنَّه يردّ عنَّا أهوالَ العالم الخارجيّ وكوابيسَه وأخطارَه.

إنَّه العمر. تأخَّرنا كثيرًا. تأخَّرنا أنا وهي.

أنا مقتنع الآن بأنَّها لم تأتِ. مستحيل أن تكون سافرتْ من بلدها الى هنا فعلًا. لا بدَّ من أنَّها فكَّرت قليلًا ولم تعصف في رأسها ريحُ الأوهام كما فعلت فيّ.

لكنَّها كانت قالت ـ كتبت ـ لي إنَّها لو تركت بيتها وسافرت إلى لقائي هنا، في هذه المدينة، فالأرجح أنَّها لن تعود، إذ أمامها أسفارٌ أخرى. لماذا قالت ذلك؟ أيَّ أسفار عَنَتْ؟ أم إنَّها كانت تريد أن تُفهمني أنَّه لقاء عابر، وهي لن تلتصق بي ولا تريد منّي شيئًا؟!

أفكّر الآن في أنَّ هذا الكلام المُطَمئن قد يكون خدعةً؛ فخًّا. فما الذي أعرفه عن هذه المرأة؟ لماذا لا تكون هاربة من فعلة ما؟ لماذا لا

يكون لقائي إيَّاها كحبَّة الرمل التي ستعطِّل دَوَرانَ حياتي كلِّها. فأنا في رأسها ذلك الشابُّ الرومانسيّ، المغامرُ والمسافرُ بلا حقائب. وهي لا يمكنها أن تقدِّر كم تغيَّرتُ، وأين أنا الآن من ذلك الشابّ.

لست أنا في الحقيقة مَن تغيَّر، بل هو العالم كلُّه. تلك المنطقة، التي تجوَّلتُ فيها طُولًا وعرضًا بلا خوف، وحيث التقيت بشرًا أطعموني وآووني، أَو نمت في عرائها هانئًا مطمئنًّا، هل كنت لأسافر إليها اليوم؟ مستحيل. مستحيل طبعًا...

لكنْ، أين كان قابعًا كلُّ هذا الحقد؟ كلُّ هذه الكراهية؟ وهذا العنف الهائل، الذي لم أستشعر آنذاك بأيٍّ من ذبذباته العميقة؟

كان الجبل بركانًا ولم أرَ منه سوى القمَّةِ المغطَّاة بالثلوج، ككلّ السيَّاح ربَّما.

الآن، حين أتفرَّج على الصُّوَر الأبوكاليبتيَّة الآتية من هناك، في نشرات الأخبار أو في أفلام وثائقيَّة، أشعر بأنّي لم أَزُر تلك البلدان يومًا. بالطبع، ليس الأمر خرافة، لكن كي تفهم ما يجري هناك، عليك أن تكرِّس جهدًا ووقتًا لا يملك أيًّا منهما إنسانٌ عاديّ. ومن يفعلْ يكُن مدفوعًا بشعور بالذنب لا يفيد في شيء، ولا يؤدّي إلى نتيجة، سوى اختراع قضيَّة لمن ليس لديه قضيَّةٌ من الفتيان الرومانسيِّين. هؤلاء الذين، لو خطر لأحدهم التعرُّف «عن قرب» إلى ذلك العالم المُبهَم، لعاد إلى أهله أشلاء في صندوق صغير، أو لم يعد بالمرَّة.

هذا ما أقوله لابنتي التي يشوب مزاحها بعضُ الجِدّ حين تتَّهمني بلا مبالاة الرجل الأبيض، مكرِّرة : لكنَّك كنت هناك، فكيف لا تعرف شيئًا عن هؤلاء؟!

لم أعرف في السَّابق شيئًا، ولا أعرف شيئًا الآن. وها أنا في مدينة بعيدة بغية لقاء امرأة من ذلك العالم...

ماذا نعرف عن بشر عاشوا حروبًا أهليَّة؟ عنفًا ودمارًا وخساراتٍ وخيباتٍ؟ وخوفًا مريعًا، بلا شكّ؟ كيف يتحوَّلون، وما الذي يتغيَّر فيهم ويقسو؟ في المربَّع الأخير من الحياة، ذلك الذي يغدو الموت فيه قريبًا ومحتمَلًا بشدَّة، لا يعود القلب سوى مضخّة للاستعمال المفيد. دم ساخن يدفق بقوَّة في الأعضاء من أجل الهرب؛ لا من أجل أيّ شيء آخر سوى الهرب.

لا عواطف ولا ذكريات ولا... ممَّ تريد الهربَ، تلك المرأةُ؟

يقترب منّي الموظَّف ويدعوني إلى التعرُّف إلى حقيبتي. أشعر براحة مفاجئة.

سأذهب إلى أقرب فندق من فنادق المطار، وغدًا أستقلُّ أوَّل طائرة، عائدًا إلى البيت.

سأنام نومًا عميقًا. ولها أيضًا سأتمنَّى ليلة سعيدة أينما كانت.

أرجو أن أنام نومًا عميقًا.

اشتقت إلى رائحة رقبة زوجتي.

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

جرُّوني جرًّا، لكنّي واصلت اللَّبيط والصراخ.

يا مريم العذراء، يا يسوع الناصريّ، صرت أقول. أجعر جعرًا بأنّي بريء،

وأنا أقسم لهم بجميع أسماء قدّيسيهم التي أعرفها.

حتَّى آخر لحظة في مقرَّات شرطة المطار، حتَّى باب الطائرة.

أبكي وأصرخ: يا إلهي! ما دخلي أنا؟

يقولون أين أخفيت أوراقك إن كان معك أوراقُ إقامة، أو لجوء، كما تدَّعي؟

أقسم لهم بأنّي في انتظارها، تلك الأوراق. يقولون أين، إذن، إشعارُ استلام الملفّ الذي أُعطي لك لتتنقَّل به؟ أقسم بأنَّ الورقة احترقت مع بقية أغراضي حين احترق معسكر التجميع بكامله. قالوا هذا في الأخبار ورأى العالم عشرات الصور.

ـ واللّـه، أنا لا أكذب. كنت سأتقدَّم بطلب بدل عن ضائع. واللّـه، واللّـه.

يضحكون ساخرين، يقولون إنَّهم سمعوا تلك الحكاية كثيرًا، ثمَّ يكرِّرون أنَّ صديقي اعترف بكلّ شيء بعدما قبضوا عليه في تلك

الجريمة الفظيعة. روى بالتفصيل ما قام هو به، ثمَّ ما قمتَ به أنت. حصَّتك كبيرة جدًّا. تقتلان مواطنة أوتكما، تسرقانها وتقطِّعان جثَّتها؟ هناك أجزاء من الجثَّة لم نجدها، مثل القلب مثلًا، هل أكلتما لحم المرأة؟ وتتساءلون لماذا تخاف منكم الناس ولماذا تكرهكم؟ يلّلا، كلٌّ إلى بلده...

ـ واللّه لا دخل لي، واللّه.

ـ الشهود ممَّن يعرفونك كُثُر، والذين كانوا يرونكما معًا كُثُر أيضًا.

الآن لا وقت للّعب: إمَّا تعترف، وإمَّا إلى ألبانيا حيث يُتقنون أكثر منَّا فنون الاستجواب.

أحاول الكذب. أكذب مجبَرًا لعلَّهم يصدّقون شيئًا، فأجد نفسي في رمال متحرّكة أغوص فيها حتَّى الاختناق.

وحين أصرخ باكيًا بأنَّهم سيقتلونني هناك، يسألون: مَن؟ أقول: أفراد عصابة كنت عملتُ معهم، ثمَّ سكنني الرعب، الرعب والأمل معًا، فهربتُ منهم...

ـ سنسلّمك إلى الشرطة الألبانيّة، اشرح لها وضعك هناك...

كيف فعل بي هذا ذلك العربيُّ المعتوه؟ كان كافيًا أن ألتقيه ذات يوم ماطر أمام باب سوبرماركت حتَّى يقضي عليّ بالموت المحتوم. سنوات وأنا أهرب، لأنّي وُلدت في أرض ملعونة، وها أنا على باب الإعدام. هل يُجدي أن أتصوَّر مصيري لو كنتُ بريطانيًّا مثلًا، أو أستراليًّا، أو سويديًّا؟ هل كانوا سـ«يحقّقون» معي بالطريقة نفسها؟ أحيانًا أفكّر في أنّي ذَكَرُ الضَّبع الذي نفته الأمّ الأنثى، أيِ الحياة. ولن يقبل بي أيُّ قطيع.

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

قلت لهم إنّي صعلوك، لكنّي لست قاتلًا. صعلوك وبلا أخلاق، ولو عرفت بنيّات ذلك المجرم لوشيتُ به. قلت لهم إنّي مَلِكُ الوشاية، وقد وشيت بأخي وسرقت آخر فلس تملكه أمي لأهرب إلى هنا. فلماذا تُراني لا أشي بذلك العربيّ لو كان لي علم بشيء.

قلت لهم إنّي لا أريد منهم سوى دقائق يستمعون فيها إليّ، لأُدهشَهم بما قمت به من أعمال فظيعة فيصدّقوني. فقط أن يسمعني أحد منهم. قلت لهم إنّكم الآن تُصدرون عليَّ حُكمًا بالإعدام، فاسمحوا لي بطلب أخير...

يا عالم، يا بشر، يا هووووو.

لن يكلّمني أو يستمع إليَّ أحد ابتداءً من هذه اللّحظة. التحقتُ الآن بنفايات الطبيعة، كجِيفة حيوان فاسدة. وهكذا، سيُلقون بي في الطائرة، ويربطون أطرافي إلى المقعد.

لا أعتقد أنّهم سيسمحون لي برؤية أحد بعد إعادتي إلى هناك. سيسوقونني من المطار إلى السجن. هناك أيضًا لن يصدّقوا كلمة، لا عن العربيّ ولا عن العصابة. ولو صدَّقوا، لو افترضنا أنّهم أعطوني الوقت واستمعوا إلى ما أقول، فمن يحميني من القتل في الخارج. مَن أنا ليتوكّل الأمن بحمايتي؟ بمَ أنفع رجال الأمن؟ أنا لست سوى مافيوزيّ صاحب سوابق، هارب من عدالتهم ومن عدالة البلد الذي طردني. أنا لست أحدًا.

الأفضل لي ألّا يصدّقوني، أن أبقى في زنزانة مغلقة. لكنْ، في استطاعة أعضاء «الجماعة» إرسال من يقتلني داخل السجن. لا أسباب تخفيفيّة عندهم لمن خان. وأنا أعرفهم جيّدًا، وقد خنتهم. سوف يفرحون جدًّا بعودتي...

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

لماذا وضع اللّـه ذلك العربيَّ في طريقي وأنا في سبيلي إلى التوبة؟ هل هذا يعني أنَّه يرفض توبتي؟ لأنَّ لا توبة لمن كان مثلي وارتكب ما ارتكبتُ من معاصي؟ أم أنَّه يفعل بي كما فعل بالأنبياء الذين أحبَّهم، يريد اختباري؟

ماذا سينفعه اختباري مقتولًا؟؟

سألحق بها إلى آخر الأرض.

أضعتُ، بسببها، سنين كثيرة من عمري. تصرَّفت كالحمار. اعتبرتُ نفسي مسؤولًا عنها، وهي أكبرُ منّي بثلاث سنوات. النساء لعنة، قصاصٌ لبني آدم منذ بدء الخليقة. ليس ما جاء في الكتب عنهن مجرَّدَ قصص وخيال.

دخلتُ السجن دفاعًا عن شرفها، تقريبًا دفاعًا عن شرفها. كنت أريد جمع المال، في أيِّ طريقة، كي أجنِّبها وَحْلَ الشوارع والخدمة المهينة. وإلَّا، فماذا تعني العائلة؟! فأنا أخوها وعليَّ الدِّفاع عن شرفها؛ شرفها الذي صار وصمة عار.

مات أبي من الإنهاك؛ من التعب وطأطأة الظهر. توقَّف قلبه فجأة في اللَّيل. التفتت كلّ الدُّنيا إليَّ وقالت: أنت الآن رجل العائلة. قالت أمِّي: أختك تطلَّقت ورجعت إلى البيت مع ابنتها. أنت أبوها الآن. تصرَّفْ. تصرَّفتُ. حملت الشنطة التي رتَّبوها لي وكان الأمر سهلًا. حتَّى قضى اللَّـه أمرًا كان مفعولًا، وكشفت الكلابُ عن محتويات الحقيبة...

سرقتني أختي. وصلتني الأخبار وأنا في السجن. زوَّرت أوراقًا وباعت البيت. مَن يصدِّق؟ سرقت مخدومتها بعد أن قتلتها واتَّهمت الزوج...

مَن يصدّق؟ يا إلهي. أيُّ شيطان سكنها؟ من أين جاءتها تلك الأفكارُ، والقدرةُ على البَلْفِ وصنع الفِخاخ المُحكمة؟

وأنا أقول إنّها تخلّصت من أمّي المريضة. قتلتها. قتلت أمّها.

ما الذي مَسَخَها؟

فوق هذا علمتُ بأنّها كانت تخرج مع الرجال. الناس لا يقولون لك بصراحة إنّ أختك تعمل مومسًا؛ عملتْ مومسًا. هذه المرأة ليست أختي. أنا واللّـه لا أعرفها.

من المؤكّد أنّها هربت. تركت هذا البلد وذهبت إلى «جهة مجهولة»، كما يقولون. لم أعثر لها على أثر. اختفت ولا أحد يعرف أين هي. لكنّي سأعرف كلّ شيء هناك، في البلد. سأجد لها أثرًا هناك. مستحيل أن تختفي هكذا ولها ابنةٌ هناك. حتّى المومس القاتلة المجرمة ستعود من أجل ابنتها بعد موت أمّي، إذ ليس للبنت أبٌ تذهب إليه. فقد تزوّج أبوها، وهو من زمان لا يريد البنت .

سوف أسوّي الأوضاع على الأرض، بدءًا من استرداد البيت... أبحث بعد ذلك عنها حتّى أجدها، وأقتلها. سوف أذبحها لحظة أجدها.

ياه...

لقد قضت عليّ ولم تترك لي خِيارًا... كانت أختي الجميلة الحنونة حين كنّا صغارًا. تُطعمني من حصّتها، وتخرج إلى الصبيان في الشارع إن سمعتْ صوتَ بكائي. كانت تأخذني من يدي إلى الدكّان وتتركني أختار ما أريد وتدفع من القليل الذي كان في جيبها. كانت تردّ عنّي ضربات العصيّ، وتبكي إن قاصصني أبي. تأخذني في حضنها الصغير، تشطف

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

وجهي بالماء وتُضحكني. أنام إلى جانبها، قرب قلبها، وهي تروي لي الحكايات، تكرّرها قَدْرَ ما أريد، وتتركني ألعب بضفيرتها حتّى أغفو...

يا إلهي، يا إلهي، قل لي أين ذهبت هذه الفتاة الصغيرة؟ أين ذهبت أختي؟

كيف أهرب ممّا وضعتني فيه؟

وإلى أين، وقد استدنتُ ثمن تذكرة السفر؟؟

إلى أين؟؟

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ـ هل وصلتكم برقيّة باسمي؟

ـ لا؟ شكرًا...

ـ هل هناك تذكرة سفر أُرسلت باسمي؟

ـ لا؟ شكرًا...

ـ هل وصلت برقيّة باسمي؟؟ هل يُعقَل أنّها أُرسلت إلى مكتب بريد آخر في المطار؟

ـ لا؟ شكرًا...

ـ هل استلمتم تذكرة سفر باسمي؟؟ هل تكون قد أُرسلت خطأً إلى مكتب للشركة خارج المطار؟

ـ لا؟ شكرًا...

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

ـ ٣ ـ

خاتمة

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

موت البوسطجيّ

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

telegram @ktabpdf
مكتبة أحمد

كانت كلاب القرى تلاحقني حتَّى المقابر. بعضُها كنت أحسب له ألف حساب، وخصوصًا تلك الشاردة الشرسة، والجائعة دومًا. أضع في سلَّة درَّاجتي ما يُلهيها عن ملاحقتي وعضّي. فساقاي لم تعودا تحتملان العضّ. لقد كبرت. كبرتُ وتوقَّفتْ مناوشةُ الكلاب عن كونها لعبةً ممتعة، كما كانت حين كنت فتيًّا.

لكنّي كنت أحبّ وظيفتي كثيرًا. وكنت أعتقد أنّي سأكون حزينًا بائسًا حين أُحال على المعاش، وكهلًا سينساني الناس وينسون مواعيدي ولن ينتظرني أحد. كانوا يخرجون من البيوت ويقفون عند العتبات حين يسمعون رنين الدرَّاجة. ترين ترين ترين... ويرفعون أيديَهم بالسؤال من بعيد. أهالي المغتربين، والعشَّاق من العرسان الجدد، أعني العرائس اللواتي بقين في البيوت بعد سفر العرسان إلى الخليج، كانوا دومًا أوَّل الخارجين من البيوت. وكان فرحي بتسليمهم الرَّسائل يوازي فرحهم. الكاسيتات المسجَّلة كانت لا تتطلَّب سوى زلقها في الآلة، لكنّي، من أجل الرَّسائل المكتوبة، كنت أبقى لأقرأ. ليس دائمًا، بل حين أعرف أنَّ المرسَل إليهم لا يعرفون القراءة.

كنت أشرب القهوة معهم، يعرفون أنّي أفضّلها «سكّر قليل». وحين تتضمَّن المغلَّفاتُ أو العلبُ بعضَ الهدايا، أو الطيّبات، كان لي منها

حصَّة. كانت جولتي التي تنتهي بالدكان نزهةً سعيدة، إلَّا حين أحمل أخبار الموت. حتَّى في هذه الحال، كان مرحَّبًا بي، إذ ما ذنب ناقل الخبر في محتواه؟

كنت أميرًا في مناطقنا البعيدة. أينما توقَّفتْ دراجتي، كان حُسن الاستقبال يذهب بالناس حتَّى دعوتي إلى الأكل، عدا تحميلي بالقوَّة لحواضر المطبخ، وأحلاها أرغفةُ الخبز الطازج التي ما زالت ساخنة...

لم يكن ذلك كلُّه بعيدًا في الزمن. أبدًا. لا الإنترنت ولا غيره كان يُغْني عن جولاتي، حتَّى حين نبتت مقاهي الإنترنت كالفطر. ذلك بأنَّ الناس لم تتحصَّل على الحواسيب بسهولة. كانت غالية الثمن وينقطع خطّها باستمرار. إلى جانب أنَّها كانت مراقَبة من الحكومة، ولعلّ الحكومة نفسَها هي من كان يقطع الخطّ. وبأيِّ حال، لا يستطيع من يستعملها أن يقول ما لا يُعجب. أو يُخيَّل إلى الناس، من خوفهم، أنَّ الحكومة تراقب كلّ شيء. حتَّى الهواء الذي ينقل ذبذبات الكهرباء. أمَّا الرِّسالة والكاسيت فقلَّما كانا مراقَبين من أحد، إذ باتوا يعتبرونهما من وسائل المتخلِّفين البعيدين عن أفكار الإرهاب.

صرتُ موظَّفًا في مكتب البريد، لا يجول ولا يوزِّع شيئًا، بسبب الحروب والمعارك التي نزلت من السماء أو صعدت من جهنَّم، لا أحد يفهم كيف، أو لماذا. داعش. داعش يقولون، وتهرب الخلائق وتموت على الطرقات، أو تختبئ في زرائب الحيوانات. حتَّى الحيوانت دشرت في الفلاة أو أكلها الناس جِيَفًا. أنا أيضًا هربت مرارًا، ثمَّ كنت أعود لأقبض راتبي، حين كان ما زال هناك راتب يصل في موعده تقريبًا إلى المركز.

كلّ ما أفعله هو الهرب والعودة. الهرب واللّفّ والدوران والذلّ، ثمّ العودة إلى هنا والاستماع إلى الأغاني حين أجد بطاريّات لآلة التسجيل. تخلّع باب المركز ولم يعد هناك موظّف واحد. لو كان لي زوجة أو أولاد لما استطعت الرواح والمجيء هكذا. أعني أن أتركهم في المخيّمات أو على الطرقات فلا أعود أجدهم في أيّ مكان من أرض الربّ الواسعة. أفكّر أحيانًا في أنّي لن أعيش حتّى تنتهي داعش؛ داعش أو غيرها. لن ينقشع غضب الربّ قبل موتي. انتهى أمر عمري.

أفكّر أحيانًا في الرسائل التي لا تصل إلى أصحابها، والتي تتكدّس في مكان ما لا يعرف مُرسلُها ما حلّ بها. تتكدّس كالأوراق الميّتة في زوايا الشوارع الفارغة. وربّما باتوا يحرقونها الآن، فالناس صاروا يعرفون أن لا أمل في وصول رسائلهم... وربّما ما عادوا يكتبون أصلًا. فحين تختفي العناوين تمامًا في المناطق المدمّرة وتتصحّر قرانا خاليةً من الناس، إلى من يكتب الواحد؟! وإلى أيّ عنوان؟! حين تنتهي الحروب سوف يبحثون طويلًا عن أسماء الشوارع، وقد يعطونها أسماء جديدة، بحسب من ينتصر ويسيطر عليها...

أفكّر جديًّا في الهجرة إلى حيث أخي. هذا إذا لم يكن غادر هو نفسُه العنوانَ الذي أعرفه له. لكنّي في حاجة إلى بوسطجيّ، هه هه، يأتيني بالأوراق الرسميّة التي لم أعد أعرف هل ما زالت في البيت، أم لا. فأنا حاليًّا أُقيم بمركز البريد. أخرج منه وأعود إليه. ولا أستطيع حتّى الاقتراب من المنطقة التي يقع فيها بيتي، والأرجح أنّها محروقة ومهدّمة بالكامل. لكنْ، إلى متى سأظلّ قاعدًا هنا، فالحروب التي تتحرّك لا خطّ لها أو سيرة. المنهزم اليوم قد يصبح أكثرَ شراسة وتدميرًا غدًا، وهو يكرّ حين يتوقّع الواحد أنّه يفرّ لأنّه ينهزم. كلّ ما ألتقطه على الراديو من أخبار

يبدو قديمًا جدًّا، إذن، هو غير مفيد، إذ تكذِّبه أذني التي تتابع ضجيج الانفجارات وأزيز الطائرات في السماء، في حين يقول الراديو أخبارًا نقيضة...

صرت أستمع إلى الأغاني فقط. أهتمّ بتدبير مأكلي، وهو أمر يزداد صعوبة يومًا بعد يوم. وبات السأم يقضم قلبي بعد أن فرغت من قراءة كلّ الرَّسائل التي وجدتها هنا وتصنيفها. صنعت منها ما يشبه الفهرس، وجمعتها في ملفَّات بعناوين واضحة، وبحسب تواريخها. فربَّما عاد إلى هنا أناس أو موظَّفون يريدون توصيل الرَّسائل إلى المرسَل إليهم. كلّ رسالة مشبوكة إلى ظرفها، وفي عنوان ملفّها درجةُ أهمِّيَّتها أو إلحاح توزيعها. حتَّى إنِّي عمدت إلى إضافة بعض التفاصيل إلى العناوين التي بدت لي مبهَمةً أو غيرَ دقيقة لمن لم يسبق له أن عمل ساعي بريد في هذه البقاع.

الآن، أكتب رسالتي إلى من قد يأتي إلى هنا، وأضعها على بيِّنة واضحة للعيان قرب فهرس الرَّسائل...

فقد أموت قبل أن يصل أحد إلى هذا المركز.

مَن يدري؟

مكتبة أحمد
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك جديد الكتب

أتوجَّه بشكر خاصّ إلى «معهد الدِّراسات المتقدِّمة ـ جامعة أوروبا الوسطى» في بودابست، بشخص مديرتها الأستاذة ناديا البغدادي IAS CEU

telegram @ktabpdf مكتبة أحمد

هدى بركات: روائيّة لبنانيّة، تُرجمتْ رواياتُها إلى لغاتٍ عديدة، ووصلتْ إلى اللائحة القصيرة لجائزة "مان بوكر إنترناشونال برايز 2015" التي تُمنح عن مجمل أعمال الكاتب أو الكاتبة مرّةً كلّ سنتين. كما حازت جائزة سلطان العويس الأدبية 2017

صدرتْ لها عن دار الآداب: حجر الضحك، وحارث المياه، وسيّدي وحبيبي، وأهل الهوى، وملكوت هذه الأرض

بحكايات أصحاب الرسائل، التي كتبوها وضاعت مثلهم في البحر. لكنّها تستدعي رسائلَ أخرى، تتقاطع مثل مصائر هؤلاء الغرباء. هم المهاجرون، أو المهجّرون، أو المنفيُّون المشرَّدون، يتامى بلدانهم التي كسرتها الأيّامُ فأحالت حيواتِهم إلى لعبة "بازل".

ليس في هذه الرواية من يقين. ليس مَن قَتَلَ مجرمًا، ولا المومسُ عاهرةً. إنّها، كما زمننا، منطقة الشكّ الكبير، والالتباس، وامّحاء الحدود... وضياع الأمكنة والبيوت الأولى.

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 795135 -961 1 861633+

مكتبة ٣٤٨

telegram @ktabpdf

مكتبة أحمد